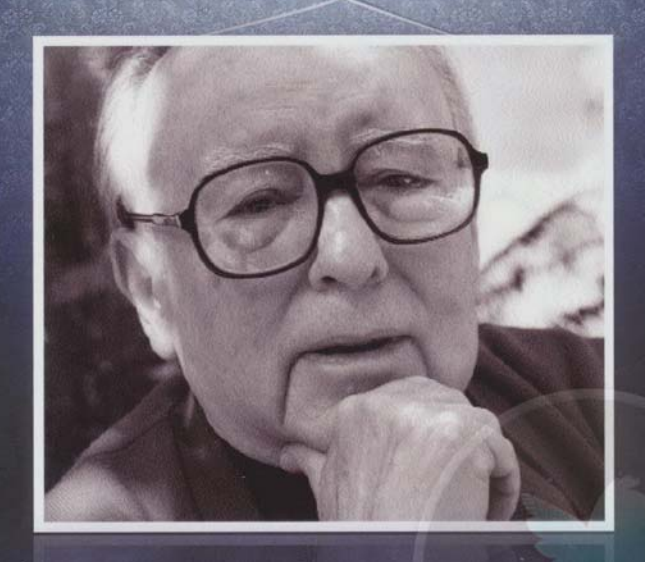


أوغستو مونتيروسو

الأعمال الكاملة

وقصص أخرى



ترجمة : نهى أبو عرقوب

أوغستو مونتيروسو

الأعمال الكاملة

وقصص أخرى

ترجمة: نهى أبوعرقوب

مراجعة: د. أحمد خريس

الطبعة الأولى 1434هـ 2013م

O5 A15 2011
Monterroso, Augusto.
[Obras completes]
الأعمال الكاملة و قصص أخرى / تأليف أوغستو مونتيروسو ؛ ترجمة نهى أبو عرقوب.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص. 153؛ 13×20 سم.

تدمك: 978-9948-17-134-8
ترجمة كتاب : (y otros cuentos) : Obras completas.
أ-أبو عرقوب، نهى.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني:

Augusto Monterroso
Obras Completas Y Otros Cuentos
DR © 1990, Ediciones Era, S. A. de C.V.
Calle de Trabajo 31, 14269 México D.F.



www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

الأعمال الكاملة

وقصص أخرى

المحتوى

تقديم.......................................7
مستر تايلور.................................11
واحد من كلّ ثلاثة........................25
سيمفونية مكتمِلة..........................35
السيدة الأولى...............................39
الكسوف.....................................61
ديوجين أيضاً................................63
الديناصور....................................83
ليوبولدو (أعماله)..........................85
حفل الموسيقى.............................117
الذّكرى المئوية............................123
لا أريد خداعكم...........................129
البقرة..141
الأعمال الكاملة...........................143

تقديم

يعدّ الكتاب الذي بين أيدينا واحداً من كلاسيكيات القصة القصيرة الحديثة في القرن العشرين، وقد ضَمن لمؤلفه الغواتيمالي أوغستو مونتيروسو (1921 - 2003) مكانة مرموقة بين كبار كتّاب القصة في أمريكا اللاتينية، إلى جانب كل من خورخي بورخيس، وخوليو كورتاثار، وخوان رولفو، وجعل منه رائداً لما يعرف بالقصة المينيمالية أو القصيرة جداً، ومثالها الأشهر في الأدب العالمي قصته «الديناصور». وفي كتابه الأول هذا، الذي حمل عنواناً يؤكد سمة أساسية في عالمه القصصي ألا وهي المفارقة التهكمية، تتجلّى السمات الكبرى التي ستميّز مجمل أعماله ومسيرته الأدبية اللاحقة: فثمة خيال جامح غذّته قراءات أدبية معمقة وبالغة التنوع (من الأدب الإغريقي واللاتيني إلى كتّاب الحداثة الأثيرين لديه أمثال: جويس، وبروست، وكافكا وفوكنر، مروراً بأدب العصر الذهبي في إسبانيا)، وتجربة حياتية واسعة الغنى، ومزج ذكي ولامع بين الجدية العميقة والسخرية اللاذعة، وقدرة كبيرة على توظيف

المحاكاة الساخرة لنصوص كلاسيكية ومرجعيات أدبية وأسطورية راسخة في سبيل نقد النزعة الأكاديمية والتعبيرات النمطية في الكتابة، كما أن هناك جرأة كبيرة في نقد الواقعين الاجتماعي والسياسي، وذلك كلّه عبر تقنيات سردية حداثية متنوعة تقوم على التناص والميتاسرد، ولغة رصينة محكمة تفيد من تقنيات الحذف والإيجاز.

وإذا كانت السخرية هي السّمة الأبرز في رصد مونتيروسو للعديد من مظاهر «الكوميديا البشرية» في أعماله، فإن هذه السخرية لا تحيل في أي حال من الأحوال إلى موقف متعال لمثقف ينظر من برجه العالي إلى ضعف أمثاله من البشر وعثراتهم وأخطائهم وحماقاتهم، فهو وقد انخرط في السياسة وناضل ضد الديكتاتورية في بلاده، وعاش جل حياته ومات في منفاه المكسيكي، يؤكد في غير موضع أن ما يكتبه ينبع أساساً من شعور عميق بالتعاطف مع البشر، ومن الإشفاق عليهم، غير مستثنٍ نفسَه، كما أن الكثير من نصوصه، ولاسيما تلك التي ينتمي أبطالها إلى عالم الكتّاب، تعبر في حقيقتها عن هواجسه الشخصية ككاتب، وشكوكه وتساؤلاته حول معنى الأدب ووظيفته وعلاقته بالحياة.

في سعيه للتجديد، رفض مونتيروسو، انطلاقاً من كتابه «الحركة الدائمة» 1972، المفهوم التقليدي للقصة القصيرة الذي كان رائجاً بوصفها مادّة للاستهلاك السّريع تُقرأ ثم تُرمى، فعمل على كتابة قصة لا تستنفد من قراءة واحدة، ولا ترتكز على النهاية المدهشة التي عدّها تقنية بالية؛ إنها قصة حادة مكثفة من أول سطر إلى آخر سطر فيها، حيث لا تهم النهاية ولا الحكاية نفسها، بل الطريقة التي تروى بها. وحيث السرد تفكيك للتقليد الأدبي، وخلطٌ للأجناس يستعصي معه النص المفتوح، الذي يجمع التأمل الفكري والأسطورة والنكتة البلاغية وقصيدة النثر، على أي محاولة للتصنيف.

وسيكون من السهل على قارئ (الأعمال الكاملة وقصص أخرى) أن يعثر في بعض نصوص الكتاب على البذور الأولى لهذه النزعة التجريبية لدى مونتيروسو، التي جعلت منه واحداً من أبرز المجددين في الأدب المكتوب بالإسبانية.

مستر تايلور[1]

....عندها قال الآخر: هنالك ما هو أقل غرابة، ولكن أكثر نموذجية بلا شك. إنها حكاية مستر بيرسي تايلور Mr.Percy Taylor، صياد الرؤوس في الغابة الأمازونية. نعرف أنه في العام 1937، رحل هذا الرجل عن بوستن ماساشوسيتش، التي كان قد أهدر فيها كلّ ماله حتى لم يبق في جيبه فلس واحد .في العام 1944، ظهر للمرة الأولى في أمريكا الجنوبية في منطقة الأمازون، حيث كان يعيش بين السكان الأصليين من أبناء قبيلة لا جدوى من ذكر اسمها.واستحق سريعاً، لهيئته التي أضناها الجوع وعينيه الغائرتين، لقب «الغرينغو المفلس»[2] وكان تلاميذ المدرسة يشيرون إليه بأصابعهم ويرمونه بالحجارة حين يمرّ بلحيته التي كانت تلمع تحت ضوء

---

(1) بالإنجليزية في النص الأصلي.كتب مونتيروسو هذه القصة في بوليفيا عام 1954 وهي موجهة بشكل خاص ضد الإمبريالية الأمريكية وشركة (يونايتد فروت United Fruit Company)، اللتين أطاحتا بحكومة جاكوب آربينث Jacob Arbenz الثورية حيث عمل فيها مونتيروسو دبلوماسياً، وتتضمن كثيراً من الإحالات إلى رموز الإمبريالية ومظاهرها.

(جميع الهوامش من وضع المترجم إلا ما أشير إلي أنه من وضع المؤلف).

(2) الغرينغو: لقب يطلق في أمريكا اللاتينية على غير الناطقين بالإسبانية .

الشمس الذهبية الاستوائية.لكنّ ذلك لم يجعل مستر تايلور يحيد عن طبعه المتواضع،كيف لا وهو الذي كان قد قرأ في المجلد الأول من الأعمال الكاملة لوليام.ج.نايت:«لو ما كنا نحسد الأغنياء لما كان الفقر عيباً».

في غضون أسابيع قليلة، اعتاد أهل البلاد عليه وعلى ثيابه الغريبة،وكُرمى لعينيه الزرقاوين ولكنته المبهمة الغريبة، كان الرئيس ووزير خارجيته يبديان له احتراماً خاصاً تجنباً لوقوع أزمات عالمية.

كان يعيش في فقر مدقع حتى إنه قصد الغابة ذات يوم بحثاً عن عشب يأكله.كان قد قطع عدة أمتار لم يجرؤ في أثنائها على الالتفات وراءه إلى أن ظهرت بغتة، وسط الأجمة، عينان لرجل من السكان الأصليين كانتا تحدجانه بقوة. أحس مستر تايلور لفترة طويلة بقشعريرة تسري في ظهره المفرطِ حساسيةً، لكنّه، وهو المقدام الجسور، واجه الخطر، وواصل طريقه وهو يصفّر كأن شيئاً لم يكن.وبقفزة (كما لو كان سِنّوراً)، انتصب القاطن الأصلي أمام مستر تايلور وصاح:

-Buy Head?Money,money.[1]

وعلى الرغم من أن إنجليزية ذلك الرّجل كانت من أسوأ ما يكون، فإن مستر تايلور، وقد اختلّ توازنه وتوتّر بعض الشيء، قد فهم أن الرّجل كان يقترح عليه أن يبيعه رأس إنسان، صغير الحجم[2] على نحو غريب، كان يمسكه براحته.

وغني عن القول أن مستر تايلور لم يكن في وضع يمكّنه من شراء ذلك الرأس، إلا أنه، متظاهراً بعدم الفهم، قد دفع الهندي الذي شعر بالخجل الشديد من نفسه لعدم إجادته

---

(1) بالإنجليزية في الأصل.

(2) الرؤوس المصغّرة::هي رؤوس مصغرة بحجم قبضة اليد عبر نوع من التحنيط كان يقوم به بعض هنود الإكوادور وفنزويلا وكولومبيا والبيرو للاحتفاظ برؤوس أعدائهم، وهو فعل طقسي، يرمز إلى قيم العدالة والانتقام في آن معاً. والهدف من التحنيط هو حبس روح العدوّ داخل رأسه حتى لا تعود للانتقام ثانية .وقد أرعب هذا الفعل الغزاة رعباً شديداً، وبعد انتهاء المواجهات، تنبه الكثير من الغربيين إلى إمكانية الاستفادة من هذه الصناعة، فراحوا يصنعون رؤوساً مصغرة ويسوّقونها.وأُخذت هذه الرؤوس من القردة بل ومن البشر أيضاً.وقد ارتكب كثير من القتل من أجل هذه الصناعة. واشتهرت تجارة الرؤوس عند القبائل الهندية في مقابل بعض المواد اللازمة . وفي الغرب، صار لهذه الرؤوس هواة جمع كثر وأصبحت المتاحف تتنافس على اقتنائها.

اللغة الإنجليزية، إلى أن يهبه الرأس دون مقابل وهو يحاول أن يعتذر إليه متلعثماً.

عظيمةً كانت فرحةُ مستر تايلور وهو عائد إلى كوخه. في ذلك المساء، وبعد أن تمدّد على حصيرته المتواضعة المصنوعة من سعف النخيل، والتي كان يتخذها فراشاً وسط صمت لا يخترقه سوى طنين ذباب (كان يحلّق في المكان في موسم التكاثر مستغرقاً في مجونه)، أمضى مستر تايلور لحظات طويلة، وهو يتأمل مُتلذّذاً ملكيته الغريبة.لقد غرق في متعة جمالية، وهو يعُدّ شعر لحية ذلك الرأس المصغّر وشاربه شعرة شعرة، ويتأمل وجهاً لوجه تينك العينين الصغيرتين نصف الساخرتين اللتين بدتا وكأنهما تبتسمان امتناناً للرّجل على ما أبدأه من اهتمام خاص بهما.

كان من عادات مستر تايلور، كرجل واسع الثقافة، أن يستسلم للتأمل، ولكنه هذه المرة سئم سريعاً من تأمّلاته الفلسفية وقرّر أن يقدّم الرأس لأحد أخواله، مستر رولستن Mr.Rolston، القاطن في نيويورك، والذي أظهر منذ نعومة أظفاره ميلاً قوياً نحو المظاهر الثقافية الخاصة بالشعوب الإسبانو–أمريكية.

وما هي إلا أيام قليلة حتى طلب الخال رولستن من مستر تايلور،وبعد أن سأله عن صحّته الغالية، أن يتكرّم ويرسل إليه خمسة رؤوس أخرى.لبى مستر تايلور نزوة مستر رولستن- لا نعرف بأي طريقة- وأبلغه عبر البريد أنه من دواعي سروره أن يحقق رغباته. وبامتنان شديد عاد خاله وطلب إليه أن يبعث له بعشرة رؤوس إضافية، وشعر مستر تايلور بسعادة بالغة لتمكّنه من إسداء هذه الخدمة لخاله. و عندما توسل إليه هذا الأخير بعد مرور شهر على ذلك، أن يبعث له عشرين رأسا أخرى، أحس مستر تايلور، الذي كان يمتلك- على الرّغم من ملامحه القاسية ولحيته الكثّة- حسّاً جمالياً رفيعاً، أنّ شقيق أمه يتاجر بتلك الرؤوس.

حسناً؛ إذا أردتم أن تعرفوا، فإنّ هذا ما كان حقاً.إذ كشف له مستر رولستن عن هذا الأمر بدقّة ووضوح في رسالة ملهَمة ذات عبارات تجارية صرفة، اهتزّت لها أوتار روح مستر تايلور الحسّاسة بقوّة لم يعرف لها مثيلاً من قبل.

وعلى الفور، تعاقدا فيما بينهما على أن يقوم مستر تايلور بجمع الرؤوس البشرية المصغّرة بكميّات تجارية، فيما يقوم مستر رولستن ببيعها بأفضل الأثمان في بلاده.

في الأيام الأولى، واجهتهما مشاكل مزعجة مع عدد من أبناء المنطقة .غير أنّ مستر تايلور،الذي كان قد نال في بوسطن أفضل نتيجة عن أطروحة عن جوزيف هنري سيليمان Joseph Henry Silliman، تكشّف عن سياسي محنّك،إذ حصل من السلطات ليس على إذن التصدير الضروري فحسب، بل كذلك على امتياز حصري لتسع وتسعين سنة قادمة . وبقليل من الجهد استطاع أن يقنع وزير الحرب ومجلس السّحَرة التشريعي بأن تلك المبادرة الوطنية سوف تُثري المجتمع في فترة وجيزة وأنه في القريب العاجل جداً، سيكون بمقدور كل العطاش من السكان الأصليين أن يتناولوا (مع كل استراحة لهم في أثناء جمع الرؤوس)، شراباً منعشاً بارداً أعدّ هو بنفسه خلطته السحرية[1].

حين أدرك أعضاء المجلس،بعد عصف ذهني سريع لكنه كاشف، النتائجَ الايجابية المترتّبة على اقتراح مستر تايلور، تأجّج شعورهم الوطني فأصدروا، بعد ثلاثة أيام، مرسوماً يطالب الشعب بالعمل على زيادة إنتاج الرؤوس المصغرة.

---

(1) إشارة إلى شراب الكوكاكولا الذي كان يتناوله موظفو شركة (يونايتيد فروت) في أثناء الاستراحة.

وما هي إلا بضعة شهور حتى بلغت الرّؤوس في بلاد مستر تايلور تلك الشعبية التي نعرفها جميعاً. في البداية كانت امتيازاً تتمتع به العائلات الأكثر اقتداراً، لكن الديمقراطية هي الديمقراطية. وإن أحداً لن ينكر ذلك، ففي غضون أسابيع سيكون بوسع حتى أساتذة المدرسة الحصولُ عليها.

باتت الأسرة التي لا تمتلك أياً من هذه الرؤوس تعدّ أسرة فاشلة .وها هم جامعو الرؤوس قد حضروا، وحضرت معهم التناقضات أيضاً: فامتلاك سبعة عشر رأسا كان يعد من باب رداءة الذوق، في حين أن امتلاك أحد عشر رأسا منها كان يسمّى رُقيّا، ولكنّ شيوع جمع الرؤوس بين العامة جعل النخبة الحقيقية تفقد شيئاً فشيئاً الاهتمام بالأمر، ولم تعد تقتني إلا على نحو استثنائي رأساً واحداً شرط أن يتمتع بميزة تخرجه عن المألوف . كان واحد منها بالغُ النّدرة بشارب بروسي- يبدو أنه كان لجنرال حائز على أوسمة كثيرة- قد قُدّم إلى معهد دان فلر Danfeller، الذي خصص بدوره، وبسرعة البرق، ثلاثة ملايين ونصف المليون دولار للتشجيع على نشر تلك التظاهرة الثقافية، شديدة الإثارة، الخاصة بالشعوب الإسبانو-أمريكية.

وتزامناً مع ذلك، تطورت القبيلة تطوراً كبيراً حتى إنها أصبحت تملك جادة بأكملها حول مبنى المجلس التشريعي. وكان يتنّزه في هذه الجادة المبهجة، أيام الآحاد ويوم الاستقلال، أعضاءُ المجلس، وهم يتنحنحون، متفاخرين، وقورين، ضاحكين، مُعتلين الدرّاجات التي منحتهم إياها الشركة.

ولكن، ماذا نفعل؟ليست الأوقات كلها جميلة، لقد ظهر أول شحّ في الرؤوس في وقت لم يكن أحد يرجو فيه حدوث أمر كهذا.

وهنا بدأ الجزء الأكثر تسلية من الحفل.

لم تعد تكفي الرؤوس النّاجمة عن الوفيات الطبيعية . وذات ليلة حارّة ومطفأة الأضواء، أراد وزير الصحة أن يكون صادقاً مع نفسه، فاعترف لزوجته بأنه يشعر بعجزه عن الوصول بنسبة الوفيات إلى المستوى الذي ترتضيه الشركة. فأجابته الزوجة بأن ليس ثمة داع للقلق، وأن الأمور ستجري على ما يرام، وأن من الأفضل له الخلود إلى النوم.

ولسدّ ذلك العجز الإداري كان لا بدّ من اتخاذ خطوات بطولية، وهكذا كان أن طُبّقت عقوبة الإعدام على نحو صارم.

تشاور القضاة في الأمر فقرّروا أن يلحقوا حتى أكثر الذنوب تفاهة، وتبعاً لدرجة خطورتها، بفئة الجرائم الموجبة للشّنق أو الإعدام رمياً بالرصاص.

حتى إنّ الأخطاء البسيطة باتت تعامل معاملة الجرائم. فمثلاً، إذا قال أحدهم، في حديث عادي ودون أي تفكير: «الجوّ حارّ»، ثم جيء بميزان حرارة، وبُرهن له على أن الجو لم يكن حاراً إلى هذا الحد، فُرضت عليه غرامة مالية زهيدة و أُعدم في حينه ومكانه رمياً بالرصاص، ثم أرسل برأسه إلى الشركة، وأما الجذع والأطراف فتذهب—والحقّ يُقال—إلى ذويه.

وفي الحال شاع الحديث عن سنّ قانون جديد للأمراض، وشُرع في مناقشته بالفعل في الأوساط الدبلوماسية وسفارات الدول الصديقة.

وِفقاً لهذا القانون الشهير، كان أصحاب الأمراض الخطيرة يُعطوْن مهلة أربع وعشرين ساعة كي يرتّبوا أوراقهم

ويموتوا.لكنْ إن حالفهم الحظ ونجحوا في نقل عدوى المرض إلى ذويهم، تمتعوا بمهلة شهر إضافية عن كل قريب تُنقل إليه العدوى. أما ضحايا الأمراض الخفيفة أو المصابين بوعكة صحية فقد باتوا محطّ ازدراء البلاد، وكان يمكن لأي شخص من المارة أن يبصق في وجوههم.وهكذا وللمرة الأولى في التاريخ تم الاعتراف بأهمية الأطبّاء الذين لا يداوون أحداً (وقد تمّ ترشيح عدد منهم لجائزة نوبل)، وتحوّلت الوفاة إلى شكل من أشكال الوطنية المجيدة.ليس على صعيد الأمة فحسب، بل على صعيد ما هو أعظم: القارة بأكملها.

ومع التطور الذي وصلت إليه الصناعات الفرعية(صناعة التوابيت في المقام الأول، والتي ازدهرت بفضل المساعدة التقنيّة المقدمة من الشركة)، بلغت الدولة، كما يقال، ذروة نموّها الاقتصادي.وكان بوسع المرء أن يلحظ مظاهر ذلك النمو في جادة مزهرة، كانت زوجات نواب المجلس يتنزهن فيها بكامل أناقتهن متدثّرات بكآبة مساءات الخريف الذهبية وكنّ، كلما مرّ بهن على الجانب الآخر من الجادة، صحفي فضولي، وحيّاهن مبتسماً ورافعاً قبعته.يومئذ بروؤسهن إيماءة ظريفة وكأنهن يقلن:نعم، نعم، كل شيء على ما يرام.

أتذكر،على نحو عابر، أن صحفياً من هؤلاء عطس ذات مرّة عطسة مدوية ولم يكن بإمكانه تبريرها، فألصقت به تهمة الإرهاب، وسيق إلى منصّة الإعدام .ولم يعترف اللّغويون الأكاديميون إلا بعد موته المخلّص بأنه كان أحد أهم الأدمغة[1] في البلاد، ولكن بعد أن غداً(مصغرا) لم يعد ثمة ما يفرّقه عن الرؤوس الأخرى.

وماذا عن مستر تايلور؟ كان في ذلك الوقت قد عُيّن مستشاراً خاصاً للرئيس المنتخب دستورياً.وها هو الآن، وكمثال على ما يمكن للمجهود الفردي أن يحقّقه، يعدّ المليون تلو المليون.إلا أن هذا أيضاً لم يعذّب ضميره لأنه كان قد قرأ في المجلد الأخير من أعمال (ويليام .ج.نايت) الكاملة أنه «لا عيب في أن يكون المرء مليونيراً شرط ألا يحتقر الفقراء».

أعتقد أن هذه ستكون المرة الثانية التي أقول فيها إن الأوقات ليست كلّها جميلة.

نظراً لازدهار تلك التجارة،حان الوقت الذي لم يبق فيه أحد من أبناء المنطقة على قيد الحياة، سوى رجال السّلطة

(1) الكلمة الإسبانية تشير إلى المعنيين (دماغ/رأس).

وأزواجهم والصحفيين وأزواجهم.ودون كبير عناء، تفتّق ذهن مستر تايلور عن حل وحيد ممكن .ألا وهو افتعال حرب مع القبائل المجاورة.ولم لا؟ في سبيل التقدّم.

باستخدام بعض المدافع، قُطفت رؤوس أول قبيلة في أقلّ من ثلاثة أشهر.والآن، وبعد أن ذاق مستر تايلور طعم ذلك المجد المتأتي عن توسيع ميادينه، جاء دور القبيلة الثانية ثم الثالثة،ثم الرابعة والخامسة .وتطوّرت الأساليب وفاعليتها بسرعة مذهلة حتى جاء وقت لم يعد ممكناً فيه، ومهما بذل الفنيّون من جهود، العثورُ في الجوار على مزيد من القبائل لشن الحرب عليها.

كانت تلك بداية النهاية:

ساد الجادتين الصغيرتين جوّ من الفتور، وصار لا يمرّ منهما من وقت إلى آخر، إلا سيدة ما، أو شاعر مرموق يتأبط كتاباً. ونبتت فيهما الأعشاب الكثيفة من جديد فشقّ على السيدات المرور من خلال الأشواك والأغصان المتشابكة. وبغياب الرؤوس، غابت الدّراجات وغابت معها التحيّات والإيماءات المتفائلة.

صار صانع التوابيت أكثر حزناً وجنائزية من أي وقت مضى.وبات كل واحد يشعر بأنه استيقظ لتوه من حلم جميل، يشبه ذلك الحلم المدهش الذي ترى نفسك فيه وقد عثرتَ على صرّة مليئة بقطع نقود ذهبية فتضعها تحت الوسادة، وتواصل نومك ثم تستيقظ باكراً في اليوم التالي لتبحث عنها فلا تجدها.

ومهما يكن من أمر،فقد استمرّت،بصعوبة بالغة،تجارة الرؤوس. إلا أنه لم يعد بإمكان المرء أن ينام نوماً هنيئاً،خوفاً من أن يصحوَ فيجد رأسه وقد فُصل عن جسده.

في موطن مستر تايلور، كان الطلب يزداد باستمرار، وكانت هنالك اختراعات جديدة كل يوم، غير أنها في الحقيقة لم تقنع أحداً، كانوا جميعاً يطالبون بالرؤوس الإسبانو–أمريكية المصغرة.

بقيت أزمة أخيرة :

قام السيد رولستن، وقد تملّكه اليأس، بطلب المزيد والمزيد من الرؤوس،فقد هبطت أسهم شركته هبوطاً مفاجئاً، لكنّه ظلّ على ثقة بأن ابن أخته يمكنه أن يفعل شيئاً لإخراجه من ذلك المأزق.

أما شحن البضائع، الذي كان من قبل نشاطاً يومياً، فقد تقلص إلى مرة واحدة وبأي حمولة كانت: رأس طفل، أو رؤوس سيدات أو رؤوس نواب مجلس.

وفجأة توقفت حركة الشحن توقّفاً تاماً.

ذات جمعة رمادية رديئة الطقس، قرّر مستر رولستن بعد عودته من البورصة –وهو ما يزال تحت تأثير الصّدمة لهول ما سمعه من صيحات ورآه من ذعر على وجوه أصحابه– أن يلقيَ بنفسه من النافذة (بدلاً من استعمال المسدس، لأنه سيمتلئ رعباً من صوته المجلجل)، وذلك إثر تسلّمه طرداً فوجئ عندما فتحه برؤية رأس مستر تايلور، مصغّراً، يبتسم له من بعيد، من غابة الأمازون البرّية، ابتسامة مزيفة كأنها لطفل يريد القول:

«آسف، آسف، لن أعيدها مرة ثانية».

واحد من كل ثلاثة

أفضّل مَن يصغي إلى حكاياتي على من يسرد لي حكاياته.

بلوت Plauto[1]

كنت متوقّعا أنك ستتفاجأ بتلقيك هذه الرسالة. ومن الممكن أيضاً أنك أخذتها في بادئ الأمر على أنها نكتة في غاية الخبث. وأكاد أجزم أنّ ردّ فعلك الأول تمثل في تمزيقها وإلقائها بعيداً عن هنا. إلاّ أنك من الصعب أن ترتكب خطأ أكبر من هذا.وعلى كلّ حال، هوّن عليك، فلستَ بالتأكيد أوّلَ المُذنبين ولا آخر النادمين.

سأقولها لك بكل صراحة: إنني أشفق عليك. وليس هذا شعوراً طبيعياً فحسب، بل إنه موات لرغباتك كذلك.إنك تنتمي إلى تلك الفئة المغتمّة من البشر، التي تجد في تعاطف الآخرين تخفيفاً لآلامها.فلتطمئنّ أرجوك، ليست حالتك غريبة في شيء. إن فرداً من كل ثلاثة يسعى إلى هذا الأمر بأكثر الطرق مواربة ورياء.ذلك الذي يشكو من مرض شديد

(1) كاتب لاتيني (254–184 قبل الميلاد–روما).

بقدر ما هو وهمي، وتلك التي تعلن أن أعمال المنزل الشاقة قد أثقلت كاهلها. وذلك الذي ينشر أشعاراً شكّاءة (لا يهمّ إن كانت جيدة أم رديئة)، كل أولئك يرجون من لفْت انتباه الآخرين إليهم، قليلاً من التعاطف الذي لا يجرؤون على إظهاره لأنفسهم. أما أنت، فأراك أكثر صدقاً: إنك تترفّع عن التغني بآلامك، وتُخفي وراء هيئتك المَهيبةِ والأنيقةِ قواكَ المستنزَفةَ وكدحكَ المرّ في طلب قوتك اليومي دون أن تتمارض. أنت تسرد روايتك فحسب، وكنوع من إسداء المعروف إلى أصدقائك، تستنصحُهم وأنت عازم في سرّك على ألا تأخذَ بنصائحهم.

إنّك لتتعجّب كيف عرفتُ بمشكلتك. الأمر في غاية البساطة: إنها وظيفتي، وعاجلاً سأكشف لك أي وظيفة هي.

لأكمل إذن: منذ ثلاثة أيام، تحت شمس صباحية غير مألوفة، استقليتَ حافلة عند تقاطع شارعي ريفورما وسيفييا Reforma y Sevilla. إن الأشخاص الذين يضطرون عادة لركوب تلك الحافلات يفعلون ذلك وهم مشتّتون شاردو الذّهن، ويفاجؤون عندما يجدون فيها وجهاً مألوفاً لهم.

لكن أنت، لكم أنت مختلف عن هؤلاء! يكفيني أن أرى البريق الذي التمع في عينيك لحظةَ عثرتَ على وجه تعرفه بين المسافرين المتعرّقين، كي أتأكد من أنني وقعت على واحدة من الشخصيات الأثيرة لدي.

استرقتُ السّمع منقاداً للعادة المهنية. إنك في الواقع لم تحيّ صديقك التحية اللائقة إذ كنت على عجلة من أمرك. شرعتَ تسرد له قصة متاعبك التي لا سبيل إلى الخلاص منها. لم يساورنْي شك في هذا .وعرضتَ الوقائع بأسلوب جعل من السّهل الاستنتاج أنّ صاحبك كان قد أُطلع على الأسرار ذاتها قبل ذلك بأربع وعشرين ساعة فقط .وكالعادة، فإن تعقّبكَ طيلة النهار حتى اكتشاف مكان إقامتك كان – ليتني أعرف السبب– أكثر مهمة أستمتع بأدائها من بين مهماتي الوظيفية الأخرى.

لا أعرف إن كان ما سأقوله سينالك منه فرح أم غضب، لكن الضّرورة الملحّة تدفعني لأن أكرر لك أن حالتك ليست فريدة من نوعها.سوف أشرح لك في كلمتين ما أنت عليه حاليّاً، وإذا كنتُ مخطئا، مع أنني أشك في ذلك.فإن هذا الخطأ لن يكون إلا شذوذاً يثبت صحّة القاعدة.

إنك تعاني أحد أكثر الأمراَض شيوعاً بين بَني البشر.ألا وهو حاجة المرء إلى التواصل مع أبناء جنسه. منذ أن عرف الإنسان الكلام، لم يجد شيئاً أعذب من صديق قادر على الاستماع إليه باهتمام، سواء في سرائه أم في ضرائه.حتى الحبّ لا يمكنه أن يرقى إلى ذلك الشعور.ثمة من يرضون بصديق واحد، وثمة من لا يكفيهم ألف صديق.أنت تنتمي إلى الفئة الأخيرة.وفي انتمائك البسيط هذا تكمن بلواك ووظيفتي.

لعليّ أتجرأ فأقسم أنّ البداية كانت حين شكوتَ إلى صديق حميم أزمتك العاطفية. وقد أصغى إليك حتى آخر لحظة ثم قدم لك بعض الحلول التي وجدَها مناسبة، لكنك- وهنا تحديداً كانت بداية هذا التسلسل اللامتناهي- لم تجد آراءه سديدة. فلو أنه اقترح عليك في ثقة،أن تطرق الحديد وهو ساخن كما يقال، فتُنهي علاقتك بلا انتظار ولا تردّد لحاججت بكل الطرق بأنك لم تخسر المعركة بعد، ولو نصحك بالمقابل بأن تواصل الحصار حتى تحصل على ماتريده، لغرقت في التشاؤم، وبتّ ترى الدنيا سوداء هالكة، ثم لا تلبث أن تلتمس الحلّ في شخص آخر ثم في ثالث،

وهلم جرّا.

بدأتَ رحلة بحثك المقدّسة يحدوك أمل كبير، حتى استنفذت العناوين المدوّنة في مذكرتك بأكملها .بل إنك حاولت بنجاح مضطرد بناء علاقات جديدة كي تذهب في مهمتك إلى أبعد مدى .ولا عجب أنك لم تلبث أن تنبهت إلى أن اليوم يقتصر على أربع وعشرين ساعة ليس إلا، وإن غفلتك تلك عن حسابات الفلك كانت عقبة كبيرة في طريقك.فكان عليك أن تنوّع وسائل تنقلك، وتخطّط جدولك الزمني بدقة متناهية.كانت وسيلة الهاتف مُنقذة لك ومنَحَتك، بلا شك، مزيداً من الإمكانيات.لكنّ نظام الهاتف القديم هذا، مازال مظهراً من مظاهر الترف، والسبعون بالمئة من أولئك الذين تريد التواصل معهم لا يتمتعون بهذه الميزة المشكوك في أمرها.

بدأت تستيقظ باكراً – وقد أضْجرك السّهد والأرق – لتدّخر الوقت الذي أخذ ينفد سريعاً، ولم يعد تعويضه ممكناً. بات إهمالك لأناقتك ملحوظاً: طالت لحيتك واخشوشنت، وتجعدت ركبتا بنطالك الذي طالما كان مرتباً أنيقاً، كما اجتاحت نعليك على نحو يُرثى له، غبرة رمادية عنيدة، كان

عليك أن تسلّم، ولو بدا لك ذلك مجحِفاً، بأنه حتى لو كنت تستيقظ مفعماً بالحيويّة،فإن قلّة من الأصدقاء فقط كانوا مستعدين لمشاركتك هذا الحماس الصباحي.والآن، وهو ما يصعب عليّ قوله، جاءت اللحظة التي ما كان بالإمكان تفاديها.لقد أصبحت غير قادر، بدنِيّا، على إبقاء محيطك الاجتماعي واسعِ النّطاق مطّلعا على سيرتك اطّلاعاً جيداً.

وهذه اللحظة هي أيضاً لحظتي.فلقاء مبلغ زهيد من المال، سوف أقدم لك الحلّ الأفضل. وإذا قبلتَ به– وأنا واثق من أنك ستفعل، إذ لم يعد أمامك خيار آخر–فإن ترحالك المفرط، وركبتي بنطالك المهلهلتين، والغبار، واللّحية، والمكالماتِ الهاتفيةَ المرهقةَ ستودّعك إلى غير رجعة.

باختصار:إنني مستعد لأن أضع تحت تصرفك إذاعة متخصّصة. ولديّ في الوقت الحالي (بسبب الوفاة المؤسفة لأحد زبائني القدامى الذي تضرّرت مصالحه إثر الإصلاح الزراعي) ربع ساعة شاغرة من البثّ ستكون أكثر من كافية– بما أنك كنت قد قطعت شوطاً لا بأس به من سردك –لإطلاع أصدقائك يوماً بيوم، بل دقيقة بدقيقة على حكايتك المدهشة.

أعتقد أن من المبالغ فيه أن أعدّد لك ميزات أسلوبي كلها،

لكنّني سوف أذكر لك بعضاً منها:

1. التأثير المهدئ للجهاز العصبي مضمون منذ اليوم الأول.

2. السرية مكفولة.فحتى وإن استُقبِل صوتك من قبل كل أولئك الذين يمتلكون جهاز الراديو، إلا أنني أجد من المستبعد أن أشخاصاً من غير أصدقائك سوف يرغبون في سماع قصة لم يتابعوا أحداثها منذ البداية.وهكذا لا يعود ثمة مكان لأي فضول مرَضي .

3. الكثير من أصدقائك (الذين تراهم اليوم يستمعون بلا اهتمام للنسخة المباشرة من سردك) سيولون اهتماماً بالغاً بالبثّ الإذاعي، شرط أن تذكر أسماءهم خلاله صراحة أو تلميحاً.

4. سيطّلع معارفك جميعهم على الأحداث ذاتها وفي اللحظة ذاتها.مما يجنبك فيما بعدُ الغيرة واللوم، فلا تفضيل لمستمع على آخر إلا إذا حدث خطأ أو عطل مشؤوم في جهاز الراديو عند أحدهم.ولتفادي حدوث أمر كهذا مخيب للآمال، تُستهَلّ كل حلقة بموجز قصير عمّا حدث في الحلقة التي سبقتها .

5. تحوز الرواية على اهتمام شريحة كبيرة ومتنوعة من المستمعين.،ويمكن تجميلها، إذا اقتضى الأمر، بما يناسبها من أنغام أوبرالية (ولن أشدّد هنا على مدى الثّراء العاطفي في الأوبرا الإيطالية)، ومقاطع موسيقية لمؤلفين كبار.إن تعليمات الإذاعة تقتضي وجود خلفية موسيقية ملائمة، علماً بأنها تضع تحت تصرف المشتركين مكتبة موسيقية هائلة فيها ما لا أذن سمعت من أصوات صادرة عن البشر والطبيعة.

6. إن الرّاوي لا يرى وجوه المستمعين، مما يحول دون أي نوع من القمع، ضده أو ضد أي من المستمعين.

7. بما أن الحلقة تُبثّ يومياً على مدى ربع ساعة، فإن صاحب الاعترافات يتمتع بثلاث وعشرين ساعة وثلاثة أرباع ساعة إضافية كي يحضِّر نصوصه، مما يجنبه كليّا المفارقات المزعجة وعثرات اللسان اللاّإرادية.

8. إذا ما حققت الرواية نجاحاً، وانضم لمجموعة الأصدقاء والمعاًرف عددٌ كبير من المستمعين العشوائيين، فلن يكون من الصعب العثور على جهة ترعى المشروع، مما يضيف إلى الميزات التي تم ذكرها، إمكانية الحصول على مبلغ من المال يمكن، إذا ما تضاعف، أن يفتح الأبواب لاستيفاء

الأربع والعشرين ساعة اليومية، وبالتالي تحويل بث بسيط مدته ربع ساعة إلى برنامج طويل لا نهائي .إن نزاهتي تملي علي الاعتراف بأن الأمر لم يتحقق حتى هذه اللحظة .ولكن لَمَ لا نرجوه بفضل موهبتك؟

إن هذه رسالة أمل.فلتؤمن بها .وفي اللحظة الحاضرة، فكّر ملياً بما يلي: العالم مليء بأناس مثلك.اضبط جهازك بدقّة على الموجة 720 بتردد 1373.في أي ساعة من النهار أو الليل في الشتاء أو في الصيف، في المطر أو تحت ضوء الشمس، وستتمكن من سماع أصوات في غاية التنوع والإدهاش، لكنها في الوقت ذاته مُشْبعة بسكينة سوداوية: صوت قبطان يحكي كيف غرق قاربه قبل أربعة عشر عاماً في أثناء عاصفة مشؤومة، فعزم على ألا يشارك المركب مصيره، صوت امرأة حذرة أضاعت ابنها ليلة الخامس عشر من أيلول التي كانت تعج بحشود من البشر .صوت واش يشكو من عذاب الضمير، صوت ديكتاتور من أمريكا الوسطى، وصوت من يتمتم وكأنه يحدث نفسه، كلٌ يحكي بلا توقّف قصّته، كلٌ يلتمس تعاطف الآخرين.

سيمفونية مكتمِلة[1]

يمكنني أن أحكي لكم–قال الرّجل البدين على عجل– أنه منذ ثلاثة أعوام في غواتيمالا كان عازف آرغن عجوز في كنيسة أحد الأحياء قد روى لي أنه في العام 1929 عندما كان مكلّفا بأرشفة مخطوطات موسيقى ميرسيد[2] Meced عثر فجأة على أوراق أثارت فضوله فعكف على دراستها باهتمام كبير كعادته وبما أنّ الشروحات كانت مكتوبة باللغة الألمانية فقد عانى الأمرّين حتى أدرك أن الأمر كان يتعلق بالحركتين الأخيرتين من «السيمفونية غير المنجزة» وهكذا أمكنني أن أتصور شعوره عندما رأى بوضوح تام توقيع شوبير Schubert وكيف أنه عندما خرج مُنفعلاً إلى الشارع كي يخبر الآخرين عن اكتشافه قالوا جميعاً وهم يضحكون إنه قد جُنّ وإنه يريد أن يهزأ بهم ولكنه وهو المتقن لفنّه ويعلم

---

(1) نودّ الإشارة هنا إلى أن مونتيروسو لم يستخدم في هذه القصة أية علامة ترقيم وهو ما التزمت به الترجمة .

(2) ميرسيد: موسيقى دينية ارتبطت على وجه الخصوص بدير ميرسيد دي سانتياغو في تشيلي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم انتشرت في أمريكا اللاتينية عموماً.

جيداً أن الحركتين الموسيقيتين الأخيرتين كانتا غاية في الروعة كالحركتين الأولى والثانية لم يجزع بل أقسم أن يكرّس بقيّة حياته في محاولة إجبارهم على الاعتراف بأصالة اكتشافه الفريد من نوعه الذي قرر من أجله مذّاك فصاعداً أن يلتقي وعلى نحو منهجي بكل موسيقيّ موجود في غواتيمالا ويلتمس مشورته وبما أن النتيجة كانت سيئة على الدوام وبعد أن تشاجر مع غالبيتهم ودون أن يتفوّه بأي كلمة لأيٍّ كان وخاصّة لزوجته قام ببيع بيته من أجل الانتقال إلى أوروبا وحين وصل إلى فِيَنا كانت النتيجة أسوأ من قبل لأن الناس هنالك أخذوا يقولون إنه لن يأتي غواتيماليٌّ -وفوق ذلك leiermann[1] كي يعلّمنا كيف نحدّد مكان أعمال ضائعة- خاصة لشوبير الذي كانت المدينة تعجّ بالمختصين في شأنه وكيف وصلت هذه الأوراق أصلاً إلى ذلك المكان البعيد وعندما أوشك اليأس أن يسيطر عليه وكان لا يملك سوى المال اللازم لعودته من حيث أتى تعرّف أخيراً على عائلة من عجوزيْن يهوديّين كانا قد عاشا في بيونيس أيريس ويتحدثان الإسبانية وقد استقبلاه بترحاب ثم بدا عليهما التوتّر عندما

(1) عازف آرغن. (المؤلف).

أخذا يعزفان بحول الله الحركتين الموسيقيّتين على البيانو والكمان الأوسط والكمنجة وبعد أن تعبا من تفحّص الأوراق من كل ناحية وشمها والاقتراب من النافذة لرؤيتها بوضوح وجداً نفسيهما مضطّريْن للاعتراف أولاً بصوت خفيض ومن ثم بالصّراخ إنها لشوبير! إنها لشوبير! ثم طفقا يبكيان في حزن شديد وقد اتكّأ كل منهما على كتف الآخر لكأنهما بدلاً من العثور على الأوراق قد أضاعاها لتوّهما وإنني دهشت لأنّهما واصلا البكاء حتى بعد أن أصبحا أكثر هدوءاً ثم إنهما وبعد أن تحدثا فيما بينهما وبلغتهما حاولا إقناعه وقد أخذا يفركان راحاتهما بأن الحركتين على الرّغم من كونهما جيدتين للغاية إلا أنهما لا تضيفان شيئاً للسيمفونية في حالتها التي وُجدت عليها وأنه على العكس يمكن القولُ بِحذفهما لأن الناس تعوّدوا على الأسطورة القائلة إنّ شوبير قد مزّقهما أو حتى لم يحاول تأليفهما مقتنعاً بأنه لن يتجاوز بهما مستوى الحركتين السابقتين أو يصل إليه وأن الإثارة كل الإثارة تكمن في التفكير بأنه إذا كانت el allegro y el andante بهذه الروعة، فكيف عساهما تكونان el scherzo y el allegro ma non troppo وأنه

إذا كان يُحبُ حقاً شوبير ويحترم ذكراه فإن الحل الأكثر دلالة على ذكائه سيكون في السماح لهما بالاحتفاظ بتلك الموسيقى وإلا فإن جدلاً لا نهائياً سوف ينفتح وسيكون الخاسر الوحيد فيه هو شوبير وعندما أدرك أنه لن يحصل على شيء من هذين الجاهلين ولا حتى من المعجبين بشوبير الذين هم أسوأ ما في الأمر عاد إلى غواتيمالا وفيما كان ينسدِل عليها ليلٌ أضاءَ بدرُه دفّةَ قاربِه المُزبدة وفي غمرة مشاعر السوداوية والضّجر من النضال ضد الأشرار وضد الأخيار تناول المخطوطات ومزّقها واحدة تلو الأخرى وألقى بالمزق من فوق القارب حتى لا يعود بمقدور أيّ كان العثور عليها مجدداً فيما جرّحت وجنتيه-أنهى الرجل البدين بنبرة حزينة متكلّفة-دموع غزيرة وهو يفكّر بمرارة بأنه لن ينال لا هو ولا وطنه شرف العثور على صفحات كان يمكن أن يستقبلها العالم باحتفاء كبير لكنّ العالم رفضها بابتذال كبير.

السيدة الأولى

كانت تقول لنفسها :زوجي يقول إن لي حماقاتي .في الواقع إن جلّ مراده أن أبقى في البيت وأهلك نفسي في العمل المنزلي كما في السابق.وهذا ما لا يمكن أبداً .إذا شاء الآخرون أن يهابوه،فهذا شأنهم،أما أنا فلا.لقد أعنتُه على الحياة بما يكفي أيّام شقائنا. ثم لماذا لا أنشد الشعر إذا كان ذلك يروقني؟! إن كونه الآن رئيس الجمهورية لا يجب أن يكون عائقاً أبداً .بل الأجدر له أن بفكّر بأنني بذلك أساعده أكثر. الحقيقة هي أن أذهان الرّجال سواء أكانوا رؤساء أم غير ذلك، محشوّة بالأحكام المسبقة .ثم إنني لن أخطب وأنشد أينما كنت كالمجنونة، كلاّ، ولكن ما العيب إن قمت بذلك في الاحتفالات الرسمية والأمسيات الخيرية فقط؟!

لم يكن ثمة عيب في ذلك.انتهت من الاستحمام، ودخلت إلى غرفتها.وبينما هي تسرح شعرها، رأت في المرآة، خلفها، الرفوف المزدحمة بالكتب والموضوعة دونما ترتيب. روايات ودواوين شعر .تأملت بعضها؛ تلك التي تشدّها بقوة: أنطولوجيا أفضل ألف قصيدة في العالم، عمالقة الأدب، فن

الإلقاء دون أستاذ والذي كانت قد أشّرت فيه بعلامة على القصائد الأجمل :ضحك وبكاء، رأس الحاخام، مداريات، إلى الأم.يا إلهي!، من أين يجيئون بكل تلك المواضيع؟

عاجلاً، لن يتبقى أي ركن في البيت يستوعب مزيداً من الكتب التي –وإن كانت لا تُقرأ كلّها – تعدّ إرثا كبيراً. كانت العديد من النشرات المعلنة عن برنامج الأمسية موضوعة على طاولة زينتها.وماذا لو قررت ذات يوم أن تقدم قراءة منفردة؟حتى ذلك اليوم لم تكن قد نظمت حفل قراءة واحداً تواضعا منها.لكنّها كانت تعي تماماً، أنها تبقى في كلّ الأحوال الشخصية الأولى في البلاد .

هذه المرّة يتعلق الأمر بأمسية أُعدّ لها على عجل لصالح الإفطار المدرسي. لقد لاحظ أحدهم أن أطفال المدارس يعانون من أعراض سوء التغذية حتى إنّ بعضاً منهم يغيب عن الوعي حوالي الساعة الحادية عشرة. وهي ربما اللحظة التي يكون المعلم فيها في أحسن حالاته .في البداية، عُزيَ الأمر لعسر في الهضم، ثم إلى وباء وفقاً لدائرة الصحة. ونهاية القصة هي أن المدير العام للتعليم، وفي أثناء ليلة من ليالي أرقه العديدة ساوره شكّ بأن الجوع قد يكون هو السبب.

دعا المدير العامُّ عدداً كبيراً من أولياء الأمور فاستنكر معظمهم بلهجة شديدة أن يفترض المدير أنهم على هذا الحد من الفقر. ولم يُظهر أيٌّ منهم، أمام الآخر، ترفعاً، أنه مستعد لقبول تلك الفكرة. إلا أن عدداً منهم توجه إلى المدير فور انتهاء الاجتماع، على نحو فردي، ليعترفوا بأنهم في بعض الأحيان، وليس دائماً بالطبع، يرسلون أبناءهم إلى المدرسة ببطون خاوية. ارتعب المدير حينما أدرك أن شكوكه كانت في مكانها، وقرّر أنه لا بد من التحرّك وفي أسرع وقت ممكن. ولحسن الحظ، تذكر أن رئيس الجمهورية كان رفيقه في المدرسة الثانوية وهكذا قرر أن يقوم بزيارته بلا إبطاء. وقال لنفسه إنه لن يندم على ذلك. استقبله الرئيس استقبالاً لطيفاً ودوداً، ربما لم يكن ليحظى به لو كان متقلدا منصبا أقلّ رفعة من منصبه ذاك. ولم يكد المدير ينطق بـ«سيدي الرئيس» حتى انفجر الرئيس ضاحكاً، وقال له «كفّ عن هذه السخافات، لا تدعوني سيدي الرئيس وقل لي مباشرة ماذا جاء بك إلى هنا؟ ثم أجبره على الجلوس، مربتاً على كتفه وكان ما يزال يضحك». كان مزاجه رائقاً. لكن المدير كان يعلم أن الرجل صاحب هذه اللّمسة الودودة لم يَعد هو الشخص نفسه الذي

كان يذهب وإياه فيما مضى إلى المدرسة، ولا حتى، بكل بساطة، ذاك الرجل الذي منذ سنتين وليس أبعد، كان يشرب معه ومع أصدقاء آخرين في بار(الدّانوب) El Danubio. وعلى كل حال يبدو أنه قد بدأ يتكيف جيّداً مع وظيفته كرئيس.وهو الأمر الذي أعلنه هو بنفسه عند تناوله الحلوى في أثناء عشاء أقيم منذ زمن قريب عند والديه، حين رفع سبابته وقال– وسط ترقب الجميع لكلماته والتأييد الحار لها من قبل معارفه ورفاق السلاح: «في البداية، يستغرب المرءُ الأمر، ثم ما يلبث أن يعتاد عليه»،

–إذن قل لي، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ردّد بإلحاح..
أراهن أن لديك مشكلة مع الوزارة.

–نعم، إذا أردت الحقيقة هذا صحيح.

–حقاً، قال مزهوّاً بقوة حدسه تلك.

–لكنني لم آت لأتحدث عن هذا الأمر.سوف نبتّ فيه لاحقاً، الحقيقة أنني لا أريد أن أضيع وقتك لذلك سوف أشرح لك الأمر في كلمتين.أُعلمك بأن هنالك العديد من الأطفال يفقدون الوعي بسبب الجوع في المدارس، وأودّ أن أرى ماذا يمكننا أن نفعل .أفضل أن أقول لك ذلك بعيداً عن

الخطابات المطولة لأنه من الغباء دوماً اللجوء إلى المواربة. ومن ثم فإنه من الأفضل أن أحكي لك ذلك بنفسي لأنه سيوجد دوماً من يحكي لك أنني لا أقوم بواجبي. أودّ أن تسمح لي بمحاولة الحصول على بعض المال من أجل تمويل دار حضانة شبه رسمية.

-أتكون في طريقك لأن تصبح شيوعياً؟ قاطعه الرئيس منفجراً بالضحك. نعم حقاً، لقد كان رائق المزاج في ذلك اليوم، وقد ضحك كلاهما كثيراً. وعلى سبيل المزاح، ذكر له المدير أن عليه أن يحذر لأنه كان يقرأ بالفعل في تلك الأثناء كتاباً عن الماركسية، فنصحه الرئيس بدوره -ولم يكن قد توقف عن الضحك بعد- بألا يذهب لرؤية قائد الشرطة لأن ذلك سيعرضه للمضايقات. وبعد أن تبادلا في هذا الموضوع بعض الدعابات الذكية، قال له الرئيس إنه يستحسن الفكرة، وإنه لا بد من التفكير بمن يحصلون منه على الدعم المالي، وإنه موافق على أن يقال إنه موافق وإن اليونيسيف قد يكون بإمكانها تزويدهم بكمية من الحليب: «الحليب لدى هؤلاء الغرينغوس[1] لا ينفد أبداً كما حليب المرضعات». قال ثمّ

(1) لقب يطلق على الأجانب وخاصة رعايا الولايات المتحدة الأمريكية.

انتصب واقفاً مُنهيا المقابلة.

–آه! على فكرة، أضاف في اللحظة التي صار فيها المدير على العتبة، إن شئتَ، تحدث في الأمر مع زوجتي كي تقدم لكم المساعدة، فهي تعشق هذه الأمور.

أجابه المدير بأنها فكرة ممتازة وبأنه سيتحدث إليها في أقرب وقت.

ومع ذلك، فقد شعر بقليل من الإحباط لأنه كان لا يطيق العمل إلى جانب النساء، وخاصة نساء موظفي الدولة، فمعظمهن غريبأت الطبع، متكبرات ومعتدّات بأنفسهن، ويجب عليك أن تعاملهنّ بلباقة ولطف طوال الوقت، وأن تحرص على أن تمنحهن الأولوية في الجلوس، ناهيك عن التوتر الذي يصيبك حين تضطّرك الظروف لأن تقول لهن لا .

وأما هي، زوجة الرئيس، فإنه لا يعرفها حقّ المعرفة، فالأفضل له إذن أن يتعامل مع اقتراح الرئيس على أنه أمر.

عندما تحدث إليها، وافقت دون تردد، كيف كان له أن يشك في ذلك؟! هي لن تساعده فقط في الترويج للفكرة عند أصدقائها لكنها سوف تنخرط هي نفسها بحماس،

وذلك بالمشاركة، مثلاً، في الأمسيات التي سيتم تنظيمها بهذه المناسبة.

- يمكنني أن أنشد بعض القصائد، قالت له، أنت تعلم كم أحببت ذلك دوماً .هذا رائع، إنها مناسبة رائعة!فكرت لكنها ندمت على الفور على تفكيرها ذاك وخشيت أن يعاقبها الله إن لم يخطر ببالها في اللحظة نفسها أنه لم يكن أمراً جيداً أن يفقد الأطفال وعيهم بسبب الجوع . ياللصغار المساكين!فكرت سريعاً كي تهدّئ السماء وتدرأ العقاب:

- الصغار المساكين، قالت بصوت مرتفع، وكم مرّة يحدث لهم ذلك في اليوم؟

شرح لها المدير في صبر أن الواحد منهم لا يفقد الوعي يومياً،ولكن يوماً بعد يوم،يفقد أحدهم الوعي، وأن الحل الأمثل يكمن في تقديم وجبة إفطار لأكبر عدد منهم.وأنه لا بدّ من إنشاء مؤسسة ترعى هذا المشروع.

- هذا أكيد، وماذا سنسميها؟

- الإفطار المدرسي.هل هذا يناسبك؟قال المدير.

مدّت يدها لتناول بطاقة برنامج الحفل، وهي بطاقة مربعة الشكل مصقولة طبع عليها بأناقة:

1. كلمات افتتاحية بقلم دون هيوغو ميراندا

Sr.Don Hugo Miranda، المدير العام للتعليم، وزارة التعليم.

2. نشيد االبحارة في حكايات أوفمان Hoffman وأوفينباخ Offenbachمن قبل طلاب مدرسة الرابع من تموز.

3. ثلاث معزوفات من موسيقى الفلس لفريدريك شوبان F.Chopinيعزفها رينه ايغوتيا Rene Elgueta طالب معهد الموسيقى الوطني.

4. دوافع الذئب لروبن داريو

Los motivos del lobo de Rubén Darío، تنشدها صاحبة السيادة مدام أوليليا فيرنانديث دي لا ريبيرا غونثاليث Sra.Doña Eulalia Fernández de Rivera González، سيدة الجمهورية الأولى.

5. سماوات بلادي، للمؤلف الموسيقي الوطني السيد فريدركو دياث D. Federico Díazوسيعزفها بنفسه على البيانو.

6. النشيد الوطني.

حاز البرنامج على إعجابها، لكنها رأت أن هنالك الكثير من الموسيقى والقليل من إنشاد الشعر.

– هل يعجبكَ ما سأقوم بقراءته، سألت زوجهاً ؟

– شرط ألا تنسي الكلام في منتصف الإلقاء فتعرّضي نفسك للسّخرية، أجاب بنبرة تهكمية بالغة الخبث لكن دون أن يقدر على معارَضة أهواء زوجته معارَضة جدّية.في حقيقة الأمر، لا أعرف لماذا تقحمين نفسك في تلك التفاهة .لكـأنك لا تعرفين جيداً حماقة الرجال.سوف يقومون بالتشويش عليك.ولكن أنت، حين يخطر ببالك أمر، لا ترجعين عنه أبداً.

أيام كان يُغازلها، كان يحب أن يسمعها وهي تنشد وتلقي الخطابات، بل كان يطلب منها فعل ذلك ليبين لها كم هو شخص رقيق ولطيف. لكن الأمر مختلف الآن، إذ بات ظهورُها إلى جانبه علناً يزعجه كثيراً .

«آه من الرّجال!، فكرت مستهزئة، إنهم لا يطيقون فكرة أن تأخذ نساؤهم زمام المبادرة، ولا يتوانون عن اعتراض طريقهن والنيل من عزيمتهن».

– النص الذي سأقرؤه..

ولكن كيف سأنساه؟قالت بصوت واضح وقد همت بتناول منديل.كيف لو لم أكن أحفظه عن ظهر قلب منذ

صغري؟! مشكلتي الوحيدة هي أن صوتي أبحّ بعض الشيء. أعتقد أن ذلك أمر مزعج. في كل مرة أنوي فيها القيام بعمل مُهم وفي موعد محدد أخاف أن أمرض، وأبدأ أفكر: سوف أصاب بالزكام حتى أصاب به فعلاً.نعم، لا بدّ من أنه أمر مزعج والدليل هو أنني أشفى منه بعد ذلك مباشرة.

وقفتْ فجأة أمام مرآتها وطفقت تحرّك ذراعيها وتجرّب صوتها:

– الفاااااااااضل الذي له قلبوووووووووزنبقة.

– روووووووووووووح ملاااااك، لغة سماااااااااااوية

– الناسك الوديييييييع فرانسيس دي أسيس ومعهوووو حيوان فظ ومريب.

كانت تلفظ liz[1] (زنبقة). وكان جميلاً أن تطيل المقاطع لكنها لا تعرف كيفية تحديد النّبر دائماً، إلا إذا كانت علامته[2] ظاهرة على الكلمة مثل Varón باروووون (فاضل) mínimo ميينمو (ناسك) وCorazón كوراثووون (قلب). أما في alma de querube (روح ملاك) أو lengua celestial (لغة

(1) اللفظ الصحيح بالإسبانية.lis

(2) تظهر علامة النبر في الإسبانية على بعض الكلمات ولا تظهر على بعضها الآخر.

سماوية) فما من طريقة لمعرفة النّبر.

غير أن الأهم من ذلك كلّه هو الإحساس بالنص، فدون الإحساس به لا جدوى من معرفة قوانين إنشاد الشعر.

الفاضل

الفاضل الذي له

الفاضل الذي له قلب

الفاضل الذي له قلب زهرة بنفسج.

وصلتْ قبل الموعد المحدّد بكثير، ومع هذا فقد شعرتْ بخيبة أمل لأنها وجدت معظم المقاعد فارغة، فقالت لنفسها: الناس عندنا لا يصلون في الموعد أبداً .متى سيتخلصون من هذه العادة السيئة.على المسرح الصغير. وخلف ستارة وضعت كيفما اتّفق، كانت فتيات مدرسة الرابع من تموز يتدربن على (نشيد البحارة) وكان أستاذ الغناء في هيئته الرصينة يوعز إليهن بعزف نوتة (لا) مستخدماً آلة صغيرة من معدن مطلي بالفضة يمكنها تقليد هذه النوتة.عندما لاحظ وجود زوجة الرئيس ورآها تبتسم، وجه إليها على عجل تحية بإيماءة من رأسه وتوقف عن تحريك ذراعيه.لكنه،

بدافع الخجل،أو كي لا يظهر مطيعاً على نحو مبتذل، أو أنه لم يكن كذلك فعلاً،لم يقطع البروفة. وشكرته هي على ذلك في سرّها لأنها في تلك اللحظة تحديداً كانت هي الأخرى تراجع القصيدة في ذهنها وأي مقاطعة كانت ستضطّرها إلى البدء من جديد،كما لو كانت تنشد حقّا.كانت تتنحنح بعد كل خمسة أسطر شعرية أو ستة، وهي تعلم تماماً أنها لم تكن تعمل إلا على تهييج حلقها في كل مرة أكثر من سابقتها مَثَلها في ذلك مثلُ الأستاذ الذي يقول له طلاّبه كي يهزأوا منه: يا أستاذ، عينك محمرّة، فيفركها بكل ما أوتي من قوة إلى أن تصبح حمراء كالجمر فينفجرون بالضحك. أو كالسعادين التي، إن وضع في راحة يدها قليل من البراز تبقى تشمه حتى تلقى حتفها.آه!يا لتلك الهواجس الكريهة! ما كان يغضبها أكثر من غيره، هو أنها كانت متأكدة من أن هذه المنغصات كلّها ستزول بانتهاء فقرتها.نعم، هذا صحيح، لكنه من المزعج التفكير بأن صوتاً نشازاً يمكن أن يخرج من حلقها في أثناء الإنشاد.

إن الخوف من الجمهور في الواقع ما هو إلأ ضرب من الغباء،وإذا لم يعجبوا بأدائها، وهذا محتمل، فإن الذّنْب لن

يكون ذنبها .قالت لنفسها: الناس عموماً، جهلة ولا يعرفون قيمة الشعر، وما زال أمامهم الكثير لكي يتعلموه.ولهذا بالتحديد كان عليها أن تنتهز كل الفرص لكي تطلعهم على القصائد الجميلة، وتعرّف بنفسها كمنشدة ماهرة.

– لكن، ياسيدتي، عاتبها المدير العام قلِقاً وقد تقدم منها مسرعاً يتصبب عرقاً.

كنت سأصطحبك إلى هنا، لم يكن محبذاً أن تحضري وحدك.

نظرت إليه متفهمة وطَمْأَنته ببعض كلمات مجامِلة.منذ أن أصبحت سيدة الوطن الأولى، وهي تسعد في كل مرة تتاح لها فيها أن تُظهر كم هي بسيطة، بل وأبسط من أي شخص في العالم .حتى إنها تمرّنت أمام مرآتها على ابتسامة ونظرة مخادعتين فاتنتين تنمّان عما معناه: «ماذا؟! هل تتصورن أن كوني زوجة رئيس الجمهورية يجعل مني مدّعية متصنعة؟! لكن ليس هذا ما رمى إليه المدير، لقد أراد فقط أن ينبِهها إلى أنها قد تبدو مضحكة، وحين أدرك أن لا جدوى من ذلك طفق يتحدث إليها حديثاً بلا معنى وعن أي شيء كان، وما إن وصل الفنانون الآخرون وأحاطوا بالسيدة حتى

انتهز الفرصة وانسحب، وشوهد بعدها بقليل وهو يصدر الأوامر، ويضع الأمور في نصابها وفقاً للمبدأ القائل إن الأشياء، ما لم تقم بها بنفسك، لن يقوم بها أحد غيرك.

ولم يدن منها بعد ذلك إلا ليقول لها:

– استعدّي يا سيدتي، سوف نبدأ.

وبما أنه صاحب خبرة واسعة، فقد تحدث كالآتي: إننا مجتمعون هنا بدافع مشاعر تضامن إنساني نبيلة، وإن هنالك العديد من الأطفال الذين يعانون من سوء التغذية، الأمر الذي كانت الحكومة أول المتأثرين به . وقد قال لي الرئيس عندما دعاني كي أطلعه على الأمر :يجب فعل شيء ما لهؤلاء الأطفال يخدم المصالح العليا للوطن، لذا، يا عزيزي، حرّك الضمائر واستثر القلوب وابذل كل ما بوسعك من أجل هذه الحملة المقدسة النبيلة. اعلموا يا سادة بأن العديد من الأشخاص من مختلف طبقات المجتمع كانوا قد بادروا مبكّرا، وقدموا لنا المساعدة المنزهة عن الغرض، وأن أصدقاءنا من أمريكا الشمالية هذه الأمة النبيلة الكريمة التي يمكننا أن نطلق عليها حقاً خزانة أطعمة العالم وعدت بتقديم تضحية جديدة لنا عبر تزويدنا بعلب من حليب البودرة .إن مهمّتنا متواضعة

في بدايتها لكننا مستعدون ولا ندَّخر جهداً حتى تصبح ليس فقط حقيقة واقعة في وقتنا الحاضر بل نموذجاً تقتدي به الأجيال القادمة .وإن لنا كل الفخر في أن نعتمد على مساعدة سيدة الجمهورية الأولى التي سيكون لنا بعد بضع لحظات شرف تذوق فنّها الممتع،وهي التي تحرّكت عندها مشاعر الأمومة الكريمة حتى البكاء عندما علمت بتعاسة هؤلاء الأطفال الذين لا يستطيعون في الوقت ذاته، سواء بسبب إدمان آبائهم على الكحول أو بسبب إهمال أمّهاتهم أو للسببين معاً، أن يستفيدوا وهم في بيوتهم المتواضعة من وجبة الإفطار المدرسية هذه خوفاً على صحتهم، وحرصاً على تطبيق التعليمات التي تنشرها وزارة التعليم التي نتشرف بتمثيلها في هذه الأمسية، إيماناً منها بأنه بالكتاب وبالكتاب فقط يمكن أن تحلّ المشكلاًت التي تواجه وطننا منذ قرون. هكذا جاءت كلماته الأخيرة.

بعد التصفيق، أنشدت طالباًت مدرسة الرابع من تموز بالعذوبة المعهودة الـ (لالا، لالالالا، لالالالا،لالا) (نشيد البحارة)بينما كان عازف البيانو ينتظر في قلق ولديه رغبة قوية في أن يعزف موسيقى الفالس التي كانت، مثل

كثير من الأشياء في ذلك اليوم، في مناطق مختلفة من الكرة الأرضية تبدأ وتنتهي في تناغم كلي.

طأطأت شاكرةً، عقدت يديها ونظرت إليهم لبرهة، منتظرة أن يصبح الجوّ مناسباً، وشعرت على الفور بأن القديس فرانسيس دي أسيس قد تجسد حقاً، عبر الكلمات المتدفقة من فمها، زاهداً عذباً، في هيئة الكائن الأكثر تواضعاً على هذه الأرض، لكن هذا البورتريه المتواضع قد تراجع إلى الوراء، لأن كلمات أخرى، مرتبطة لا نعرف لماذا بسابقتها، أتت لتغير صورته تماماً فتحولّه إلى رجل غاضب فظ .وشعرتْ هي بأنه لا يمكن أن يكون غير ذلك لأنه كان يتحدث إلى ذئب سببت مخالبه خسائر فادحة بين الرعاة وقطعانهم، ولكل الكائنات الحية التي تعترض طريقه، ولكن نعم، ارتجف صوتها، وفرّت منها دمعة حين قال القديس للذّئب ألاّ يكون شريراً وسأله لماذا لا يتوقف عن الإغارة على الدّيار كأنه آت من جهنم. غير أنه سرعان ما عادت نبرة صوتها لتعبّر عن كبير ارتياح حين قام الحيوان، بعد أن فكر في الأمر قليلاً، باتباع القديس إلى القرية حيث اندهش الجميع لرؤيته مروّضاً إلى هذا الحد حتى إن طفلاً كان باستطاعته أن

يضع له في يده شيئاً يأكله، تدفقت الكلمات منها إذن عذبة ورقيقة وخطر لها أن الذئب يمكنه هو الآخر أن يقدم شيئاً للطفل كي يأكله حتى لا يفقد وعيه في المدرسة، لكن الضجر خيّم من جديد، عندما ذهب الذئب ثانية إلى الغابة مستغلاً غفلة القديس فرانسيس، وقضى على الفلاحين وقطعانهم.
اتخذ صوتها هنا نبرة إدانة شديدة كانت تُعلّيها أو تخفضها، تبعاً للحاجة، بما أنها تعرف الحكاية مسبقاً، دون أن تتذكر الزكام والتوترات اللعينة التي كانت تثير رعبها فيما سبق من أيام. وعلى العكس، فإن شعوراً جميلاً بالأمان، نعم بالأمان، غمرها لأنها لاحظت أن الجمهور يصغي إليها باهتمام، مندهشاً من وحشية الحيوان .هذا على الرغم من أنها كانت تعرف أنّ الأدوار ستنقلب وأن الذئب سيتحول من متّهَم إلى متّهِم حين يعود القديس فرانسيس ليبحث عنه، ولديه ثقة مطلقة، أنه سيعود لا محالة إلى جادّة الصواب. شئنا أم أبينا، كان لا بدّ من الانحياز إلى الذئب، الذي كان من السّهل تفهّم كلماته: «آه، نعم، أليس كذلك، القصة جميلة!كنت هناك، هادئاً تماماً، آكل ما يحلو لهم أن يرموه لي وألعق أيادِيهم جميعاً مثل حمل، ولكنّ هؤلاء البشر، يستسلمون

في بيوتهم للغيرة والفسق والغضب، ويتحاربون و يخسر الضّعفاء وينتصر الأشرار: كانت تعطي كلمتي «ضعفاءَ وأشرار» نبرتين مختلفتين جداً بحيث لم يشكّ أحد في أنها منحازة إلى الفئة الأولى. واطمأنت إلى أن كل شيء يسير على ما يرام، وأن إنشادها كان موفقاً لأنها كانت تمتلئ غضباً من نذالة البشر التي تضمحلّ أمامها نذالةُ الذئب، الذي علاوة على ذلك لم يكن كائناً عاقلاً. وفوجئت بالوقت يمضي بها سريعاً إلى الخاتمة: الآن، نعم، الآن، على الكلمات أن تتدفق من حنجرتها لا قاسية ولا رقيقة، لا غاضبة، ولا هادئة، بل ممتلئة مرارة ويأساً؛ لأن القديس ما كان يشعر بغير ذلك عندما اعتقد أن للوحش عقلاً، ثم توجه في نهاية المطاف إلى أبينا الذي في السماواااااااات.

بقيت لبضع ثوان رافعة ذراعيها نحو السماء. سالت خطوط صغيرة من العرق بين نهديها وعلى ظهرها. سمعت الجمهور يصفّق، أخفضت يديها وعدّلت تنورتها خِفية وحيّت الجمهور في تواضع، وهي تقول لنفسها : على كل حال لم يكن الجمهور ثقيل الظل وبليداً إلى هذا الحد. لكن كان عليه أن يبذل بعض الجهد كي ينفتح على الشعر شيئاً فشيئاً.

وبينما كانت تصافح أولئك الذين حضروا لتهنئتها، غمرها شعور عذب ولطيف بالتفوق وحين اقتربت منها سيدة متواضعة من الجمهور لتسلم عليها وتقول لها «كم كان ذلك جميلاً»، كانت على وشك أن تأخذها بين ذراعيها لكنها تراجعت في اللحظة الأخيرة واكتفت بسؤالها «هل حقاً أعجبك؟» فهي في الحقيقة لم تعد تفكر في ذلك العرض بل في إمكانية تنظيم أمسية أخرى في القريب العاجل، في قاعة أكبر، ولماذا لا تكون في مسرح حقيقي، حيث تضطلع هي وحدها بكامل البرنامج، لأن الجانب السيئ في تلك الأمسية أن الموسيقيين يضجرون الناس حتى وإن كانت الصحافة في اليوم التالي تطري عليهم وهذا ليس عدلاً. آه، هذا لا يمكن أن يحدث ثانية!

وحين وصلتْ إلى باب بيتها، دعت المدير العامّ وصديقين أو ثلاثة آخرين لشرب الويسكي «احتفاء بذلك» وكانت ترغب في أن يطول الحديث عن انتصارها قليلاً.

آه، لو كان زوجها هنالك ليسمع ما كان يقال لها فيقتنع أخيراً بأنها ليست مجرّد حماقات. لكم كنا موفقين! أليس كذلك؟ كم استطعنا أن نجمع من الأموال؟

شرح لها المدير العام بجد وتفصيل أن الأرباح بلغت سبعة دولارات ونصف الدولار.

–فقط!

شعر بمرارة لكنه أعلن متفائلاً أنّ الأمر لم يكن بهذا السوء لكونها أوّل أمسية، وأن ما كان ينقص في المقام الأول هو الدعاية الجيدة.

–لا، قالت، أعتقد أن ذلك يعود لصغر القاعة.

–حسناً، بالتأكيد،، قال، أنت محقة في هذا.

–ماذا يمكننا أن نفعل؟، يجب بكل تأكيد مساعدة هؤلاء الأطفال المساكين.

–كما ترين، المهم أننا بدأنا.

–نعم، ولكن علينا أن نستمر، علينا أن نعدّ لشيء أكثر جدّية.

–أعتقد أنه لو كان بإمكاننا التعويل على مساعدتك....

–نعم، إذا أمكننا الحصول على مسرح فسوف أقوم بالإنشاد، وسترون ولكن أنا بحاجة إلى مسرح كبير وإلاّ فقد رأيتم ما حدث نفنى في الإعداد للأمر وفي النهاية لا نجني شيئاً ولكن على كل حال سوف أتحدث عن هذا الأمر مع

زوجي فهو يدفعني دوماً لإنشاد الشعر إنه مشجعي الأول،
وكما رأيتم فالناس يرغبون في سماع الشعر، ولو عرفتم كم
تأثرتُ حين تقدمت مني امرأة لا أعرفها أبداً وقالت لي أن
ذلك أعجبها كثيراً! أعتقد أن إنشاد الشعر سيحقق نجاحاً
كبيراً.ما رأيك في ذلك؟ قالت

-بالطبع، هذا يعجب الناس كثيراً.

-لكنّ قلة الأرباح التي حصلنا عليها اليوم تقلقني، ماذا
لو أعطيتكم مئة بيسو كي نظهر بصورة أفضل؟ أرغب جداً
في المساعدة، أعتقد أننا شيئاً فشيئاً يمكن أن نتجاوز هذه
العقبة!

قال: بالتأكيد، شيئاً فشيئاً سنجتاز هذه العقبة!!

حين شعر الأخ بارتولومي أرّاثولا أنه تائه، أيقن أن لا شيء يمكن أن ينقذه. كانت غابة غواتيمالا العظيمة قد أطبقت عليه تماماً بلا رحمة. وأمام جهله بالطبوغرافيا. جلس في هدوء ينتظر الموت. أراد أن يموت هنالك، في عزلته، بلا أمل، وفِكره متجه نحو إسبانيا البعيدة، تحديداً نحو دير لوس أبروخوس حيث تفضل كارلوس الخامس[1] ذات مرّة ونزل من عليائه ليقول له إنه يثق بامتلاكه حماساً دينياً في عمله كمبشر.

وما إن استيقظ حتى وجد نفسه محاطاً بمجموعة من السكان الأصليين ذوي ملامح صارمة كانوا متأهبين لتقديمه قرباناً أمام المذبح، ذلك المذبح الذي بدا لبارتولومي فراشاً سيستريح فيه أخيراً من مخاوفه، ومصيره ونفسه.

كانت الأعوام الثلاثة التي أمضاها في البلاد قد منحته معرفة لا بأس بها باللغات المحلية. حاول قليلاً، قال بعض كلمات تمّ فهمها.

وبفضل موهبته وثقافته العالمية ومعرفته العميقة بأرسطو

(1) كارلوس الخامس: من ملوك إسبانيا (1500–1558).

التمعت في ذهنه فكرة:تذّكر أنّه في ذلك اليوم كان يُنتظر حدوث كسوف كامل للشمس.فعزم، في قرارة نفسه، أن يفيد من هذه المعرفة في خديعة مضطهديه وإنقاذ حياته.

–إذا قتلتموني فإنه بوسعي أن أجعل الشمس تنطفئ في علُاها.

حدّقوا به مليّاً فلمح الريبة في عيونهم.ثم رآهم يعقدون اجتماعاً مصغّراً.فأخذ ينتظر في ثقة لا تخلو من ازدراء.

بعد ساعتين، كان قلب الأخ بارتولومي أرّاثولا ينزف بقوة على حجر المذبح (الذي كان يلتمع بالضوء الخافت للشمس بعد كسوفها). فيما كان أحد السكان الأصليين يتلو بوتيرة واحدة بلا عجل التواريخ اللانهائية لكسوف الشمس وخسوف القمر،التي كان علماء الفلك من شعب المايا قد تنبّئووا بها ودونوها في مخطوطاتهم دون الحاجة إلى مساعدة أرسطو الثمينة.

ديوجين أيضاً

«خنق طفل في مهده أيسرُ من تعهّد شهوات مكبوتة».

ويليام بليك

من حيث الزمن، والمسافة،،والانتقال من مكان إلى آخر كما تقول قوانين المادة، من المؤكد أنه لم يكن من الصّعب أبداً على P(كما كان يدعوه مدير المدرسة حين كان يقرّعه، وهو يحمل عصا غليظة في يده ويهز شاربه) الوصول إلى بيته! لكنّ الأمر كان كذلك حقاً! كلاّ:ليس لأنه كان ضعيفاً أو مريضاً.فعلى الرّغم من ذلك التشوّه الطّفيف غير المؤثر في عظام جمجمته،إلا أنه كان ولداً كغيره من الأولاًد.

إن جوّ البيت هو ما كان ينفره ويجعله يصدّ عنه: فغرفتاه بشعتان قاتمتان، وهو غارق في العتمة وتجتاح ذرّات الغبار الدقيقة كلّ شيء فيه حتى أنها تسد الأنف لتجعل من التنفس فعلاً واعياً متعمدّاً، وتنتشر في كلّ زواياه رائحة كريهة غريبة، وزد على ذلك كلّه دعوةَ أمّه الملحّةَ الكئيبةَ:عليك أن تذاكر دروسك، عليك أن تدرس، وعليك...!كانت هذه العوامل

مجتمعة كفيلة بأن تحوّل العودة إلى المنزل من فعل عادي بسيط إلى مهمة شاقة بغيضة.

بالمقابل،كان يلحظ مَرَح رفاقه وابتهاجهم، سواء كانوا في الثامنة من العمر أو التاسعة أو الحادية عشرة، وهم يغادرون– لحظة وجود الشمس في كبد السماء– مبنى المدرسة القديمة ذات القاعات الضيّقة المليئة بالمعلمين الذين باتوا بعيدين جداً عنه، محض خيالات! كان لا يتذكّر أسماءهم، أو نسيها بالسهولة التي تغير بها البحار الملوّنة والأنهار المستحيلة أمواجها ومياهها..

بيتي،أظنني قد ذكرت ذلك! إنّه على بعد أمتار قليلة، تفصله عن المدرسة أربعة أزقّة، ربما خمسة، لا أستطيع تحديد ذلك على نحو قاطع، إذ لا جدوى من أن أسعى لتذّكر مرّة واحدة سلكتُ فيها الطريق المباشرة إلى البيت.فمن باب التعوّد على الشّيء أو الحاجة إليه، دأبتُ،وهو ما يستشف من الفقرات الأولى لهذه الحكاية، على اللّف والدورأن طويلاً قبل الوصول.

بعد خروجي من الصّف كنت أذهب عموما إلى الأسواق، حيث أنتشي برؤية الفاكهة الصفراء والحمراء وبالاستماع إلى

العبارات النابية الصادرة عن بائعات الخضروات وتعلّمها، أو أمرّ بالوهاد التي تسمع فيها عند مغيب الشمس أصوات غريبة غامضة،أو بالكنائس أحياناً أخرى حيث تماثيل لقدّيسين (بعضها مبتور الأطراف، لا أعرف إذا كانوا هكذا في حياتهم، أو أن هذا البَتر يعود إلى تأثير الزمن في المادة التي صُنعوا منها!) وقدّيسات كنّ يُلقينَ في روعي رعباً غريزياً لم أبرأ منه حتى الآن.

كنت أقيس الزّمن بأن أنتظر لحظة غروب الشمس نهائياً قبيل وصولي إلى البيت .كان الباب مفتوحاً على الدوام. وكانت أمي تفتحه منذ الصباح الباكر. ربما لم تكن تغلقه أبداً حتى لا أطرقه فأقطع عليها حياكتها. لم أكن أعرف في تلك الفترة حقيقة أن ساعة غروب الشمس تتغير من يوم إلى يوم. لذا حين كانت الأيَّام تطول في حزيران وتبدو كأنها لن تنتهي أبداً، كنت أصل متأخّراً جداً حتى إن أمي كانت في بعض الأحيان – قلقةً لما يمكن أن يكون قد حلّ بي– تقف على الباب في انتظاري، وفي سورة غضبها، تضربني وتغرز أظافرها في ذراعيّ وهي توبّخني.ولكنّني، على الرغم من الضرب والزجر، لم أستوعبْ يوماً كيف يمكن للشمس أن

تتلكّأ هكذا فاستمريت في الوصول متأخراً، أحياناً بقدمين ملطّختين بالوحل ومبلّلاً بزخّات من مطر الصّيف، الذي يُطلق عليه الناس في بلادي شتاءً.

لقد أدركت جيّداً في أثناء إحدى الإجازات—التي ننتظرها طوال العام بفارغ الصبر، ثمّ لا تلبث أن تصيبنا بالضّجر – أن الأمور في بيتي لم تكن تسير على ما يرام.

كان أبي غائباً. وأتذكر– وهو ما ثبتت صحته لاحقاً– أن غيابه عن البيت كان يتكرر كثيراً .وكنت أشعر بأن أمي، وإن كانت تبدو أكثر هدوءاً عندما لا يكون حاضرا !—كانت تصارحني قليلاً.. مستحيل، مستحيل! حين تُطمْئنني بأنه يعمل في هذه المدينة أو تلك من الولايات، من أجل جلب كثير من قطع النقود الذهبية إلى البيت الذي—مما لا نقاش فيه، كان بحاجة ماسة للمال (حسبما فهمت).فكنت أسالها دوماً: متى سيتحقق ذلك؟ وكانت تلتزم الصمت، أو تتحدث عن شيء آخر (متعمّدة بوضوح تحويل مجرى أفكاري) فتطلب مني الانصراف إلى دروسي أو تبدأ بتوبيخي على شيء فعلته، أو بالأحرى اقترفته منذ زمن طويل.

أعرف تمام المعرفة أنه لا ينبغي لي أن أقول ما أنا عازم عِلى قوله: من المؤكد أن أبي كان صعلوكاً، بالمعنى الحرفي للكلمة. كان يشعر بفخر لكونه صعلوكاً، بل ويجد متعة في العمل على نشر صيته كصعلوك،ولم يكن أحد من الجيران يجرؤ على التشكيك في ذلك.

أعتقد أنه ما من طفل (باستثناء ابني) كان له أب مثل أبي، وهل يمكن يا ترى أن يسمى أباً ذلك الذي كان أبي؟

هو نفسه، ولفترة طويلة، عمل على ألا تترسّخ في عقلي فكرة أنني ابنه. ما زلت حتى الآن، أستعيد هذا المشهد المتكرر وأعيشه بوضوح بالصورة نفسها: كان يصل في الهزيع الأخير من الليل حين يكون جيراننا في ذلك البيت العتيق قد غطّوا جميعهم في سبات عميق،يصل ثَملا تماماً، فيغرق الغرفة، بفعل نفسه القويّ المتعب، برائحة قيئه المشبعة بالنبيذ .أغمض عيني وأستطيع أن أراه يمشي بحرص كي لا يفتعل أية ضجة، مثلَ شبح، واضعاً سبابته على شفتيه مُلتمساً الصمت وهو يترنح يميناً ويساراً دون أن يفقد توازنه تماماً.

ولو رآه غريب على هذا لظنّ أنه رجل سكيّر يتحلّى بقدر معين من الفِطنة والنباهة، وعلى وجه الخصوص رجل يراعي

الآخرين في نومهم. لكنّ صمته وردود فعله لم تكن للأسف ضمن الخصال المطلوب توفّرها في الرّجل السّكير. كانت تنطوي بالأحرى على نيّة شيطانية، إذ لم يكن المراد بها أكثر من مفاجأة عشيق خائن لحظة تواجده في غرفة أمي.

ذلك هو الوسواس الذي كان يستحوذ عليه في تلك الفترة. فقد ثبت لي فيما بعد أنه كان واحداً من بين وساوس أخرى كثيرة عانى منها. ذات مرّة (من بين مرّات كثيرة أخرى) وفي زمن أبعد، كان قد هجر البيت تماماً متيقّناً من أننا جميعاً، أمي وأنا والكلب! كنا ندبّر لاغتياله في أثناء نومه، حتى وإن فكّرت لاحقاً بأن أمي ربما تكون قد أقدمت على ذلك فعلاً، إلاّ أنّ ذلك الشكّ كان عبثياً ولا أساس له، لأنها كانت تحبه. منذ ذلك الحين، وبعد أن بات مقتنعاً بأنه قد خدع للمرة الثانية (هذا ما كان يظنّه) وأن العشيق كان أكثر دهاء أو أقل سهراً وتسكّعاً منه، صار يأتي إلى الغرفة حيث كنت أرقد ويمسك بي بذراعيه فيهزّني بغضب مطبقاً عليّ برائحة نفسه الكريهة، ويديه الرخوتين اللتين لرجل كسول. عندها كنت أطلق صرخات يمكنها أن توقظ المدينة بأكملها. لكنّه لم يكن يرضى إلاّ بعد أن ينهال عليّ ضرباً لعدّة لحظات،

صارخاً: لست ابني!، لست إبني! وكأنه يريد أن يقنع الجيران ويقنعني أنا، الولدَ ذا السادسة من العمر،بأنني كنت ابناً ليس لأمّ كباقي أطفال العالم، بل ابناً لـ (تعلّمت الكلمة لاحقاً) ابناً لـ (ساقطة).

وكانت أمي تُهرع دوماً لإنقاذي، وتأخذني بعيداً عن ذلك الصوت وذلك النفس المشبّع بالكحول الأمر الذي كنت أشكرها عليه من أعماق قلبي.وأبقى بعدها، بقلب منقبض، مرتجفاً من البرد لا أقوى على النّوم من فزعي وشدّة توتري. وأظل أرى لوقت طويل بعدها أشياء غريبة في العتمة. غالباً ما كنت أنتحب طويلاً،وكنت في بعض الأحيان أواصل البكاء حتى بعد زوال رغبتي الحقيقية فيه، كي أستدر شفقة أمي فتقوم بمواساتي، ولكي أحملها على البكاء قليلاً، هي أيضاً.

ولفرط تكرار هذه المواقف، ذهبت إلى التفكير بأن أبي لم يكن في الحقيقة أبي.لكنْ ما لم أستطع فهمه أبداً، لماذا– وأنا لست ابنه– يضربني بهذه الطريقة دون أن يخطر بباله أن يفعل الشيء ذاته، حتى ولو لمرة واحدة، مع أبناء الجيران الآخرين، الذين بدون أدنى شك، لم يكونوا أبناءه؟!

نادراً ما كنت أراه في غير تلك الساعة من اليوم. كان من عادته الاستيقاظ متأخراً جداً، بينما أكون أنا في المدرسة، لا أقوى على الكلام من النعاس، ولا أفلح في استيعاب العمليات الحسابية التي كان المعلّم، الواثق هو أيضاً تمام الثقة بأننا لم نكن أبناءه، يحاول حشوها في رأسنا مستعيناً ببعض الصفعات واللكمات.. وإنني اليوم،وبعد كلّ ما مررت به، أتعجب من قدرتي على استظهار جداًول الضرب (حتى وإن كان ذلك بتلعثم وبشيء من الخوف الذي لا أقوى على كبحه).

أصلُ بذراعين مثقلتين بالطرود، ألقي بعضاً منها على السرير الذي هو أشبه بمائدة طعام مغطاة بملاءة بيضاء طويلة وناعمة،مطرّزة يدوياً، وعليها صحون، صحون كبيرة مليئة بالفاكهة، لكنني ما ألبث أن أكتشف أنها ليست صحوناً بل مزهريات ضخمة مليئة بأزهار خضراء (غريبة)، محفوفة بخيوط من الحرير اللامع.

أخلع قبعتي، ألقي بها فتسقط على رأس الكلب فيتقافز ويهمهم متذمرّاً. أحدّق في عينيه فألمح فيهما لمعاناً غريباً. وكمن يستعد للكشف عن مفاجأة، وبعينين ماكرتين، أنظر

لزوجتي وابني (الذي يشبهني على نحو يفوق التصور)
وأبدأ أخرج، خفية، من جيب داخلي في سترتي، شيئاً يأخذ
ببطء شديد، نعم ببطء شديد، شكل دراجة هوائية صغيرة.
ابني -أنا-!،تمنى دوماً الحصول على واحدة.لماذا إذن لا
أجلبها له الآن، وقد صرت أكسب الكثير؟ لكن لا بدّ أن
ثمة خطأ ما !فبدلاً من العجلات الثلاث الضرورية، الملائمة
والكلاسيكية، أخذت تتابع في الخروج عجلات كثيرة أخرى
لا حصر لها، امتلأت بها الغرفة، وتحوّلت إلى شيء مزعج،
لا يطاق.أفكر عندها:لا بدّ أنه خطأ في التصنيع. وبشيء من
الخجل، أضحك وأعود أرتّب كلّ شيء في جيب سترتي كما
كان سابقاً، ولكن بطريقة عكسية هذه المرّة .تأخذ العجلات
بالاختفاء مصدرة رنينا (كأنه صادر عن معدن مذهّب)-
لكنّ آخرها-الذي كان أوّلها، يدخل بصعوبة فائقة مطبقا
على صدري تماماً، حتى ليوشك أن يخنقني مثل لقمة لحم
كبيرة الحجم تقف في الحلق.أشعر وكأن قطرات صغيرة من
العرق تتكاثف على جبهتي.عليّ أن أنتهيَ من هذا فوراً.
ثانيةٌ أخرى وسأسقط مغشياً عليّ مُفسدا على زوجتي وابني
بهجتهم.أخشى إن متّ ألاّ يوجد من بعدي من ينجح في

فك شيفرة ميكانيكية الدراجة الهوائية المشروحة فقط على قطعة من ورق،أو على ورقة البردي التي يمضغها بائع الآلة، ويزدَرِدها بصوت عال، حتى لا يتمكن أحد من كشف سرّ تركيبها.

لكي أنقذ نفسي، عليّ أن أخرج العجلات ثانية من جيبي .لكنّ عطلاً آخر أصاب الآلة. والآن،ها هي العجلات تعاند في الخروج مثلما تعاند في العودة إلى نقطة انطلاقها. مستعيداً أنفاسي، قرّرت أن انزع سترتي وأرمي بها بعيداً عني أو قريباً مني، الأمر سيان.لا أستطيع!لأن كمّيها مثبتان في ظهري ببراغي بيضاء صلبة.أكره قميص المجانين هذا .إنه آلة جهنمية.أرتمي على الأرض. ليس هذا هو الحلّ المناسب. أحرك قدميّ بغضب، أشعر بالبرد، أكف عن تحريكهما. وحين لا أقوى على الإتيان بأي حركة أبكي وأصرخ بكل قواي وأنا أتصبب عرقاً. زوجتي وابني يحدقّان فيّ،أمي تمسح بيديها وجنتي،تجفف عرقي بحنان، تقدم لي بعض الماء، القليل جداً.وتشرح لي أن ذلك يُسمّى كابوساً.

لاحقاً، لم يعد يعاملني بذلك السوء، ولم يعد يشتمني. اللّهم إلا بضع ركلات مجانية حين تسنح له الفرصة.

لقد استغرقنا الأمر عدّة أسابيع، أنا وأمي، كي نتنبه إلى أن وسواساً جديداً قد استحوذ عليه. لم يعد يبحث عن عشاق تحت الأسِرّة، ولم يعد يتشمم الأغذية كي يتحقق من أنها لم تكن مسمومة، وكأن مجرّد شمّها يجعله يكتشف الأمر، كما لم يعد يرمي الصحون وهو يصيح أنها لم تكن مغسولة جيداً وأننا نعامله مثلما لو كان غريباً.

لقد وجد الآن ضحية أخرى: الكلاب. في واقع الأمر، أخذ يتملكني بمرور الأيام شعور قوي بالاحتقار تجاه هذه الحيوانات. وقد وصل بي الأمر أن أكرهها أكثر من أي شيء في العالم. وكلّ ما خبرته من مشاعر وانفعالات ترسّب في داخلي مشكلاً طبقة سميكة متماسكة، ظهر منها على السطح، عند أول تماس لها مع الحياة اليومية، هذا الغثيان وهذا الاشمئزاز من تلك الحيوانات بعيونها الدامعة الوديعة وألسنتها التي يسيل منها اللّعاب والمتأهّبة دوماً للعق الأقدام التي تركلها.

أول ضحاياي (وكم من ضحايا تبعته) كان كلبنا الذي لا أريد أن أذكر اسمه[1] هنا، هذا الاسم بالغ الحمق والإهانة

---

(1) ديوجين. (المؤلف).

وبعد التأمل جيداً في كلّ ما حدث، أعتقد أن اسمه قد لعب دوراً مهماً في رسم نهاية حياته.لو كان اسمه غير ذلك، لما أعرْته، ربّما، أي انتباه. اسم الكلب مهمّ تماماً كالكلب نفسه،إن الرّجل أو المرأة، إذا رغبا –ومهما كانت أسبابهما غريبة ومثيرة للدّهشة– يستطيعان تغيير اسميهما .إنها مسألة ذوق، ويكفيهما أن يعلنا ثلاث مرّات في صحف سرّية عن قيدهما المدني الجديد حتى يتم هذا الأمر .أمّا الكلب،فعليه أن يحتمل اسمه طوال حياته، إلا إذا قرّر أن يتشرد في الشوارع ويغدو كلباً ضالّا، شديد الهزال ومجهول الهوية، لكنّ الحياة على هذا النحو شاقة وكئيبة،والحقّ أن قلّة من الكلاب ترتضي لنفسها أن يطردها الناس من المطاعم الكبرى أو من حمامات المطاعم البائسة وهم يشتمونها قائلين: يا كلاب، يا كلاب!، هذا إن لم تتلقّ بعض الركلات في البطن. أتذكّر أن الفيلسوف القديم قد اختار لنفسه ذلك الاسم لكونه أكثر الأسماء دناءة واحتقارا:كَلبيْ .وكان يعجبني أنه كان يقوم بتقليد الكلاب حتى يحتقره البشر بقدر ما كان يحتقرهم هو، بل إنّني قرأت ذات مرّة ما يلي: «ذات عشاء، رمى له بعضُهم عظمة مثل كلب، وحين اقترب منها، بال عليها،

كما تفعل الكلاب». لكنني أكره أيضاً هذا الكلْبي العجوز المفرطَ في سذاجته.

يحدث أحياناً أن نقول أشياء فظيعة، وما سأقوله الآن يدخل في هذا الباب :أعتقد أن أبي كان يغار من هذا الحيوان.إن الربط بين عدد من الأفكار هو ما دفعني إلى هذا الاستنتاج، ولا أستطيع أن أفسر على نحو غير هذا موت ديوجين.

وعلى كلّ حال، ألا يقعُ جزءٌ من المسؤولية على الكلب نفسه؟ففي نهاية المطاف، من يطلب من الكلاب أن تكون لها هذه النظرة الدّامعة، الحنونة والمحِبة؟ ومن أعطى الأمر لكلبنا بالاختباء تحت السرير عندما يظهر أبي؟ألم يكن الذّهاب لمقابلته (بما ينطوي عليه من خطر تلقّي بعض الرّكلات) خيرًا له من استثارة غضبه بمحاولة هرب لا جدوى منها .ولكن هيهات، لم يكن يأتي إلا بما هو أقل صواباً وأكثر غباءً.أحياناً كان يبدأ بالنباح قبل أن يتلقى أي ضربة، فيفقد أبي صبره وفي نهاية الأمر ينهال عليه ضرباً.

ذات يوم فاجأنا أبي نحن الثلاثة.

كانت الظهيرة شديدة القيظ، كنت أذاكر بجدّ جدول

الضرب، وكانت أمي مستسلمة لحياكتها السرمدية، لا أستطيع أن أستحضرها دون أن أربط ذكراها بتلك الصّنارة الفضية وكبة الغزل البيضاء الموضوعة على الأرض، فوق صحيفة. لا أعرف كيف كانت تنجز أعمال المنزل الأخرى لأنه يستحيل عليّ أن أستحضرها الآن إلا وهي تحيك أو تكوي ما تحيكه. كانت البسط المنسوجة يدوياً تجتاح الغرف، ولكنها بدلاً من إضفاء لمسة جمالية عليها (وهذا ما كانت تريده أمي بدون شك) كانت تمنحها طابعاً ريفياً رديء الذوق. وكانت المكاوي المسودّة المصنوعة من الحديد، موجودة في كل الأمكنة الغريبة التي لا تخطر على بال أحد.

كانت حياكتها تلك أيضاً ضرباً من الهوس. حين لا تكون منكبّة عليها، كانت تهز أصابعها لا شعورياً وكأنها مازالت تحيك، خشية ألاّ تفقد مقابل أي شيء في العالم ذاك الإيقاع الموجود منذ زمن لا يعلمه إلاّ الله .ولو لم أكن معتاداً على رؤية كبة الخيوط على بلاط البيت لاعتقدت ببساطة أن أمي هي من كانت تفرز هذه الخيوط، كما تفعل العناكب.

كان الكلب مستلقياً في زاوية من البيت ولعابه ومخاطه يسيلان بغزارة.

وكان الحجر الذي يسند إليه رأسه يتغطّى بالبخار كلما تنفس، وكنت أحب أن أخط بإصبعي على هذا البخار حروف اسمي الأولى، لكنّ أمي كانت تردعني دوماً قائلة: «أنت ولد قذر».

قلت للتّوّ إنه فاجأنا نحن الثلاثة.فآخر ما كنا نتوقعه هي عودته والحال التي عاد بها. وصل باكراً في الصبّاح، وكان في أحسن حال، رائق المزاج صاحياً.كان حبوره جليّاً، وأراد أن ينقله إلينا.كم كنت أحب أن أراه على هذه الصورة وأنسى ولو للحظة صفعاته ولكماته!

نزع قبعته ورمى بها برشاقة كبيرة (هذا على الأقل ما لاحظته) على البساط الموجود في آخر الغرفة.

ومن ثم توجه إلى أمي وداعب شعرها بكفّه، وانحنى ليقبّلها ويقول لها بعض كلمات لم أفلح في سماعها أو أنني نسيتها الآن، وأنا حزين لعدم احتفاظي بها في ذاكرتي،فلا بدّ من أنها كانت عذبة طيّبة.

وحين جاء دوري دنا مني، وربت مرتين على كتفي وسألني مبتسماً:

كيف الحال؟

خفضت بصري وأحسست بنار تحرّق وجنتيْ.

–جيد، يا أبي.

وبعدها، جلس، بدا خجِلاً بعض الشيء، كانت قد مضت عدة شهور(أو سنوات) لم نره فيها. أحسسنا بأنه يريد التحدّث والاستمرار في قول أشياء مبهجة. بيد أنه بقيَ هنالك ساكناً. وعيناه نصف مغمضتين أو أنهما شاردتان في دعامة السقف الخشبية المسودّة قليلاً بفعل الدخان (حسبما بدا لي).

اقترحت أمي– أو بكل بساطة قالت – شيئاً ما. نهضتْ لإغلاق النافذة لأن الليل كان قد حلّ، وتسللت نسمة باردة إلى الغرفة. ثم عادت في صمت إلى حياكتها.

في وضوح تامّ سمعنا جميعاً صوت الكلب، كما تفعل كلّ الكلاب عادة حين تشعر بثقل الصمت. كان مستلقياً في إحدى الزوايا، وقوائمه الأربع ممتدّة كأنه عظاءة وبطنه متدلية على الأرض في استرخاء كما يفعل حين يكون الجوّ حاراً.

عند سماعه، توجهت ببصري ببطء نحو أبي. كان يتسم. وكانت أمي تنظر إليه. حين رأته مبتسماً، ابتسمت هي الأخرى وحين رأيتها تبتسم ابتسمت أنا أيضاً. وأخذنا جميعاً نراقب الحيوان الذي ابتسم هو أيضاً على طريقته. وشعرت

بارتياح كبير وأنا أرى أبي –وقد كسر الصّمت ثانية– يطرقع بإصبعه بنيّة واضحة لدعوة ديوجين إلى الاقتراب.

بدعوته، اخذ الكلب يتحرك ببطء، متثاقلاً، مادّاً جسمه إلى الأمام مستعيناً بقوائمه الخلفية. إنه لم يتوقع أبداً أن يعامل بهذا الحنان. وأتصور أنه هو نفسه قد لاحظ أن أبي لم يكن ثملاً كعادته وأن ذلك اليوم لم يكن كغيره من الأيّام.

في غضون ذلك، واصل أبي مناداة الكلب مستعيناً بالصفير وبعض ألقاب الدلال مثل:كلبي الصغير،عزيزي، محاولاً على الأرجح أن يطرد عنه الخوف نهائياً.

في ذلك اليوم، تكوّنت عندي شبهُ فكرة عمّا قد تكونه السعادة. كنت أنظر إلى أمي فأراها راضية، وأتأمل أبي فأجده راضياً وعلى أحسن ما يرام. كما لمحتُ هذا الرّضا في عيني الكلب .وعندما قطع هذا الأخير المسافة كلّها التي كانت تفصله عن والدي، بلغت سعادته أقصاها. فراح يحرّك ذيله بقوة فائقة ويطلق همهمة بين الفينة والفينة. وفي لحظة ما، ربّما تمادياً في دلاله، انقلب على ظهره،وقوائمُه مرفوعة في الهواء، وكأنه يريد التعبير عن بالغ حبوره، لكنّه لم يلبث أن عاد إلى وضعه الطبيعي،مدفوعاً بشيء من الخجل ربّما، وقد

داعب أبي أصابع قدميه.

ألا يتحمل جزءاً من المسؤولية حقاً؟ أقول هذا وأنا أشهد الله على أنني لا أكنّ له عداء شخصياً، هو اليوم ميت وعليّ أن أحترم ذكراه، ولكن، لماذا وهو الذي يعرف أبي، تصرّف على هذا النحو؟ ربما ما كان يريده، ولست متأكداً من ذلك، أن يشارك أبي فرحته وابتهاجه.وأن ما حدث هو أنه في لحظة معينة أدار رأسه نحوي،وعندما تعب من النظر إليّ، أو عندما لم أعد أعيره انتباها، التفت بعينيه الغبيتين نحو أمي وبقي هكذا لبرهة، لسانه متدل، منتظراً أن يكلمه أحد.

في تلك اللحظة، تغيّرت ملامح أبي.مدّ في هدوء شديد ذراعه اليمنى نحو الطاولة المجاورة، وتناول واحداً من مكاوي أمي، وتركها تسقط كالصّاعقة فوق رأس الحيوان دون أن تترك له أي فسحة للدفاع عن نفسه. لم يأت بأي حركة، ولا أمي كذلك، ولا أنا. لم يكن ثمة داع.

حسناً، تتخيلون طبعاً كيف كانت الدقائق التالية. حين توقّف ذيل الحيوان عن الحركة، وحين تيقّن أبي من أنه قد مات فعلاً، نهض من مكانه وكأن شيئاً لم يكن، تناول قبعته وخرجْ، ومذاك لم نره مطلقاً.

إن زوجي، في الحقيقة، قد لا يكون سيئاً إلى هذا الحد، كنت أميل ببساطة إلى الاعتقاد بأنه كان مريضاً إلى حد ما، أو مريضاً قليلاً، كما كان يقول هو. ولعلّ احتجازه في مشفى المجانين حيث وجدته بعد بحث مُضْنٍ، هو مجرّد دليل من بين أدلّة كثيرة أخرى استندت إليها في حكمي هذا.

وهو اليوم أشبه بطفل يصرّ على الاعتقاد بأن أباًه يعذبه بسبب جرمٍ متخيّلٍ ارتكبته أمه قبل ولادته. وحين تتلاشى هذه الفكرة من ذهنه، سوف يشفى.

وأنا أقول من جهتي: ما من أحد في منأى عن النميمة. إنها تأتيك من حيث لا يخطر ببالك أبداً، حتى من قِبل أطفالك الذين تحبّهم. ولأن ثمة أناساً مستعدين لتصديق أي شيء حتى وإن كان كذباً واضحاً وضوح الشمس، فإنني أتمنى ألاّ يمنح أحد مصداقية لمثل هذا التلاعب بالألفاظ الذي لا نهاية له والمدبر بنيّة غدر هدفها إلحاق الأذى بي. من السهل أن ندرك—وسيكون مُهيناً أن ننكر أن الجميعَ قد تنبّه إلى ذلك—أن ابني قد كذب منذ البداية حين وصف نفسه، وهو يعي تماماً أنّه يكذب، بقوله إنه ضحية لـ«تشوه في شكل الجمجمة طفيف وغير مؤثر.» والحقيقة هي أن رأسه مشوّه

إلى حد كبير. وهذا ليس خطئي. لقد جاء هكذا إلى العالم، بعد ولادة عسيرة جداً، وقد تنبهنا إلى ذلك باكراً.

ذهابه إلى المدرسة ما هو إلاّ كذبة ساذجة: لقد تعلّم القراءة والكتابة في البيت.

أنا موظف في وكالة سفر. وهذا ما يشهد به توقيع شركة (روسيندوم آند سي)، التي أحتفظ منها برسائل تثني عليّ. بما لا استحق.

توفيت زوجتي منذ وقت طويل. لم يعرفها ابني. وقد تربّى في أحضان أمي.

فيما يتعلق بالكلاب، أنا واثق، أستطيع أن أقسم بذلك، بأنني، باستثناء ديوجين، لم أقتل أياً منها أبداً. مع ديوجين، كنت مجبراً على ذلك. ما من كلب في مأمن من الكَلَب، لماذا سيكون ديوجينُ استثناء؟ في كل لحظة، كان يمكن أن يصاب بهذا المرض، الذي كما يعلم الجميع، ينتشر على نحو متسارع، ويمكنه بفاعلية وفي وقت قصير أن يأتي على شعوب بأكملها.

لا أتخيّل ما الذي كان سيحلّ بنا لو فاجأه هذا المرض الفريد من نوعه الذي لا يمكن التنبؤ بعواقبه.

الديناصور

حين استيقظَ، كان الديناصور ما يزال هناك.

باعتداد بالنفس يصل إلى حدّ الغرور، دفع ليوبولدو Leopoldo الباب محدثاً صخباً وداخلاً للمرة الألف دخول المنتصر إلى المكتبة.جال بنظرته المحدِّقة المتعبة المقاعد باحثاً عن مكان مريح وهادئ.وبعد أن ألقى التحية على اثنين أو ثلاثة من معارفه بإيماءته الاضطرارية المعتادة، ولسان حاله يقول «نعم، كما ترون، ها أنا أعود إلى العمل»، تقدم بِتَرَوّ، شاقا طريقه في ثقة: «عفواً عفواً،اسمحوا لي».كلمات لم يقلها لكنّها كانت تُستشفُ من ذلك التعبير الوديع المتسامح المرتسم على وجهه مع كل خطوة .حالفه الحظ بأن وجد مقعده المفضل شاغراً. كان يحب الجلوس أمام الباب المطلّ على الشارع.ذلك الباب الذي يتيح له–كلّما انفتح ودخل منه أحد– التّمتع باستراحة قصيرة خلال انشغاله في أبحاثه المضنية .فإذا كان جنس الدّاخل أنثى، هجر ليوبولدو الكتاب مؤقتاً وأخذ يتفحصها بدقته المعهودة بتلك العين التي يهبها الذكاء بريقاً.كان ليوبولدو يحب الأجساد المتناسقة، ولكن لم يكن ذلك هو السبب الرئيس في حبه لمراقبتها .لقد

كانت دوافعه أدبية بحتة.فغالباً ما كان يقول:«من الجيد أن نقرأ، وأن نبحث بعناد، لكن مراقبة الناس أنفع بكثير للكاتب.وإنّ الكاتب الذي ينسى ذلك لهو إنسان خاسر. إن الحانة،والشارع، والمؤسسات الحكومية تعج بالمحرّضات الأدبية.فيمكن للمرء مثلاً أن يكتب رواية عن الطريقة التي يدخل فيها أحدهم مكتبة أو يطلب بها كتاباً.أو عن الطريقة التي تجلس بها بعض النساء. كان على قناعة بأنه يمكن للمرء أن يكتب رواية حول أي شيء كان..لقد اكتشف—وقد دون بعض الملاحظات القيّمة حول ذلك—أن أفضل القصص بل وأفضل الروايات ترتكز على وقائع مبتذلة،أو على أفعال يومية لا تحمل في الظاهر أي قيمة. العبرة كلّها في الأسلوب، تلك المهارة في إضفاء قيمة على التفاصيل.إن العمل الفني يتفوق على مادته.ولا شك في أن أكبر الكتّاب هم أولئك الذين يصنعون من موضوع لا معنى له رائعة فنية، عملاً خالداً. صرّح ذات مساء في المقهى :«إن أكثر كاتب إبداعاً هو ذلك المبدع الأكبر الدون خوان باليرا Don Juan Valera[1]:

(1)خوان باليرا :كاتب ودبلوماسي وسياسي إسباني (قرطبة 1824— مدريد 1905).

إنه لا يقول شيئاً على الإطلاق، لكنه أوجد من هذا اللاشيء عِشرات الكتب».لقد أعلن ذلك على سبيل المصادفة، ودون تفكير مسبق تقريباً.بيْد أنّ هذه العبارة أضحكت أصدقاءه وأكدت سمعته كداهية أريب.وما كان منه إلاّ أن قام بتدوين تلك الكلمات الشهيرة وانتظر حتى تسمح له الظروف بتوظيفها في كتابة رواية.

ترك ليوبولدو أوراقه على الطاولة.وبعد أن تأكّد من أن أحداً لن يجرؤ على انتهاك حقوقه.نهض وتوجّه إلى مسئولة المكتبة.تناول بطاقة، أخرج من جيبه، بخفّة،قلمه الوفيّ، وبخطه الأنيق، كتب بتروّ ودقة:

E-42-326.Katz,David.Animales y hombres.Leopoldo Ralon.Estudiante.32años.

(ي–42–326. كاتس. دافيد. الحيوانات والبشر. ليوبولدو رالون. طالب. 32عاماً).

منذ ثمانية أعوام وهو ينقص من عمره الحقيقي سنتين. ومنذ ثمانية أعوام لم يعد طالباً.

بعدها بقليل، كان ليوبولدو قد شغل مقعده ثانية، وما لبث أن فتح الكتاب على الفهرست، بحثاً عن الفصل

الخاص بالكلاب.وكان قلمه والأوراق البيضاء العديدة تنتظر على الطاولة بفارغ الصبر أن يُدون بها أي تفصيل جدير بالاهتمام.

كان ليوبولدو كاتباً مُدقّقاً وصارماً تجاه نفسه،وقد كرس منذ السابعة عشرة من عمره، كل وقته للأدب، ممضياً النهارات وذهنه شارد فيه .كان فكره في اشتغال دائم ولم يكن يسمح للنعاس أن يغلبه قبل العاشرة والنصف مساء.وما كان يُعيبه سوى أمر واحد:أنه لم يكن يحب الكتابة.كان يقرأ، ويدوّن الملاحظات، ويتأمل، ويحضر المؤتمرات، و ينتقد الإسبانية الركيكة المستخدمة في الجرائد، ويحل الكلمات المتقاطعة الأكثر تعقيداً كتمرين للعقل.أما أصدقاؤه الوحيدون فكانوا كتّابا.كان يفكر ويتحدث ويأكل وينام مثل كاتب.لكنّ رعباً أسود كان يتملكه إذا ما أمسك بالريشة.وعلى الرّغم من أن هاجسه الأكثر إلحاحاً هو أن يصبح كاتباً مشهوراً، إلا أنه كان دائماً ما يؤجل ساعة تحقيقه متذرعاً بتلك الحجج الكلاسيكية من قبيل:لا بد أولاً أن نعيش، ليس باستطاعتنا عمل أي شيء إن لم نكن قد قرأنا كل شيء، لقد كتب سيرفانتيس الدون كيخوته في سن متقدمة، لا وجود للفنان

دون خبرة، وذرائع أخرى على هذه الشاكلة.لم يكن يفكر، حتى السابعة عشرة من عمره في أن يصبح مبدعاً.ولعلّ نداء الفن عنده طارئ عليه.إنها مشيئة الظروف.استعاد ليوبولدو تلك الظروف -وكان قد صرف انتباهه عن كتاب كاتس لعدة لحظات-فخطر له أنها تصلح لكتابة رواية.

كان يعيش في نُزُل، وكان طالباً في سنته الدراسية الثانية، يحب السينما وابنة صاحبة الفندق، التي كان يُطلق على زوجها «حامل الليسانس» لأنه كان قد درس مدة ستة أشهر في كلية الحقوق. إن هذا السبب القويّ،إضافة إلى أن المستأجرين الآخرين كانوا، طبيباً ومهندساً وطالب حقوق وشاباً فارساً كان يقرأ ليل نهار قصائد خوان دي ديوث بيثا Juan De Dioz Peza [1].قد جعلا ليوبولدو يشعر منذ البداية بأنه يعيش في وسط ثقافي.

لم يستطع ليوبولدو هنا أن يخفيَ ابتسامته، فقد أخذ يفكر في قصة يمكن أن تحكى، تلك المرة الأولى التي أحس فيها برغبته القوية في أن يغدو كاتباً (حيث كانت هنالك مرة

---

(1) خوان دي ديوث بيثا (المكسيك 1852-1910):شاعر وكاتب سياسي مكسيكي.وكان عضوا في الأكاديمية اللغوية المكسيكية.

ثانية): غير أن ذكرى الطبيب حوّلت مجرى أفكاره، فهي بلا شك تيمة أخرى جديرة بأن يتوقف عندها.

«كان ر.ف.الطبيب، قد أكمل دراسته منذ تسعة أعوام لكنه لم يترك الفندق، مقتنعاً -وقد صار ممارساً للمهنة-بأن عدد النزلاء الكبير يعزز فرص الإصابة بالمرض فيصبح البحث عن زبائن في مكان آخر حماقة بيّنة. وعلى الرغم من الصداقة التى كان يدعي أنه يكنّها لكل واحد منهم، فإن خدماته لم تكن يوماً مجانية. فأن تشعر بفقدان الشهية وتتجرع عقاراً ما أصبحا أمرين متلازمين، وأن تشكو من التعب فتجد أذنه وقد التصقت بصدرك سريعاً غداً أمراً لا مفر منه، و أن تشعر بالتعب حقاً بات يعني أن تتلقى على الفور حقنة في جلدك. أما ألا تشكو شيئاً فلم يكن-لحسن الحظ- يجدي نفعاً في نظره، إذ كان شعاره في الحياة «أن العافية التامة لا وجود لها وأن تمتع المرء بوافر الصحة أسوأ من إصابته بمرض يمكن تشخيصه وبالتالي علاجه .فالمقابر تعج بأولئك الذين كانوا واثقين دوماً بصحتهم البدنية».

دوّن ليوبولدو بعض الملاحظات وكتب في مذكرته: «التحقق من أنه لم يسبق وأن كُتبت رواية عن طبيب كهذا،

إذا كانت النتيجة سلبية، التفكير بالأمر والاشتغال عليه منذ الغد».

استطاع أن يبدأ الكتابة ساخراً من الكراهية التي يكنها الطبيب للعمليات الجراحية، شارحاً باستفاضة اللحظة التي أعلنت فيها صاحبة النزل أنها تعاني من الزائدة الدودية، وأنها بحاجة لعملية جراحية، الأمر الذي فجر غضب الطبيب. دوّن ليوبولدو ملاحظة جديدة: «ها قد مضت ثمانية أيام دون أن يوجه لها الكلام، بعد أن أبلغها بأنه سيترك المكان إن هي انقادت لتلك السخافة» ملاحظة أخرى: «أصِف بسخرية، كيف أن الطبيب، وبعد أن خضعت السيدة في نهاية المطاف للعملية الجراحية، لم ينفّذ تهديده بترك النزل. ليس هذا فحسب، بل إنه، لما دخل عندها. حاول أن يقنعها بأن جرحها لن يتأخر في الانفتاق ثانية، مما يجعل حضوره حتمياً إذ لا نعرف ماذا يمكن أن يحدث...» هذه بعض كلمات الحوار.

- «كلا، يا سيدتي، فلتفهمي جيداً، الجراحة أمر أخطر بكثير من المرض، إن إحداث شق في بطن المريض هو أضمن طريقة لقتله. حتى الطفل يمكنه أن يفهم ذلك».

- «لكنني أشعر بأنني على ما يرام، لم أشعر يوماً بأن صحتي أفضل مما هي عليه اليوم».

- «يا سيدتي، يمكنك أن تفكري بالطريقة التي تشائين، لكن واجبي هو أن أعتني بك، وأجنبك العواقب الوخيمة.

فتح ليوبولدو كتاب كاتس، وكان قد اطمأن لقدرته على العمل على هذا الموضوع وتطويره، وبحث بفارغ الصبر عن الفصل الخاص بغرائز الكلاب.ولكنه، مدفوعاً برغبة لا واعية بعدم التّصدي للموضوع الرّاهن، توقف عند الصفحات التي تعالج فِعل النقر عند الدجاج.كان ذلك غريباً.تقوم دجاجة بنقر دجاجة ثانية، فتقوم الثانية بنقر ثالثة، التي تقوم بدورها بنقر دجاجة أخرى وهكذا في تتابع لا يوقفه إلا التعب أو الملل.بحزن، ربط ليوبولدو بين هذه الحقيقة المؤسفة وبين سلسلة النقر[1] (الزّجر) المتواصلة التي يلحظها المرء في مجتمع االبشر.وفي الحال، لمس الإمكانيات التي تمنحها تلك الملاحظة لكتابة حكاية ساخرة.سجل ملاحظاته:رئيس أحد الشركات يستدعي مديره ويلومه على

(1) يلعب الكاتب على مرادفتين للفعل (picotear): بمعنى نقر و(نقد أو شتم).

تساهله موضحاً له بغضب المنحنى الخطي الآخذ في الهبوط:

-«لا بدٌ أنك تدرك أكثر مني أنه إذا استمر الحال على هذا النحو، فإننا سوف نشرف على الإفلاس.وإنني، والحال هذه، سأجد نفسي مضطراً في الاجتماع القادم للإدارة إلى أن أناقش الفائدة المترتبة على تعيين مدير أكثر كفاءة».

«أراد المدير، وقد فاجأته هذه (النقرة) أن يقول شيئاً لكن رئيسه كان في تلك اللحظة قد بدأ يكتب على الآلة الكاتبة» إن التقدم الذي أحرزته شركتنا على مدى الأشهر الثلاثة المنصرمة، يدعوني إلى الاعتقاد أن تهديدكم بتركنا لا ينبع على الأرجح من شك حقيقي من جانبكم، بقدر ما ينمّ عن وجهة نظر خاطئة.إن انخفاض نسبة المبيعات في الأيام القليلة الماضية إنما يعود إلى ظاهرة بسيطة تم رصدها من قبل آدم سميث تقول إنّ التجارة ترتبط بالتذبذب الحاصل بين العرض والطلب.حينما يتم إشباع السوق......»

وبناء عليه استدعى المدير مسؤولَ المبيعات:

-«لا بد من أنك تدرك أكثر مني أنه إذا استمر الحال على هذا النحو...إلخ.. سأجد نفسي مضطراً...إلخ، الفائدة... إلخ».

«وما كان من تلك (النقرة) إلا أن دفعت مسؤول المبيعات إلى التوجه إلى مندوبة المبيعات الأولى الجبانة[1]

-«إذا لم تزد المبيعات الأسبوع القادم بنسبة عشرين في المئة، أخشى أنك...إلخ،إلخ...

«أقدمت مندوبة المبيعات الأولى، وقد فقدت الآن بعض ريشها، على (نقر) مرؤوستها المباشرة التي ستقوم بدورها (بنقر) خطيبها الذي سيقوم بدوره بزجر أمه، التي....».

استنتج ليوبولدو، أنه يمكن في حقيقة الأمر كتابة حكاية طريفة انطلاقاً من هذا الموضوع الذي يتسم بالحركة .فعلم النفس المقارن من المجالات التي على كل كاتب أن يلمّ بها. دوّن ملاحظة حول حاجته لأن يدوّن ملاحظات وكتب في مذكرته:«حكايات النقر المتسلسل». زيارة متجرين أو ثلاثة.التأمل والنظر.أخذ الملاحظات. وإذا أمكن التحدث إلى أحد المديرين والدخول إلى نفسيته ومقارنتها بنفسية الدجاجة».

وقبل أن يصل إلى الفصل المخصص للكلاب، تفحص

(1) في النص الأصلي (la gallina) بمعنى دجاجة لكنّها تطلق أيضاً على الإنسان الجبان.

ليوبولدو فتاة كانت دخلت للتو.والآن إلى العمل،ها قد وصل إلى فصل الكلاب. سيدوّن في مذكرته كل تفصيل يمكن توظيفه .وبعينيه المرهقتين، المحاطتين بهالتين سوداوين تتركان انطباعاً قوياً عن حدة ذكائه، أخذ يقلّب الصفحات على نحو منهجي، ويتوقف من وقت إلى آخر كي يخط بعض الكلمات،وقد ارتسم على وجهه إيحاء طفيف بالنصر. كان صرير ريشته يسمع عندئذ في القاعة بأكملها. كانت يده الدقيقة، المغطاة بزغب ناعم والتي تكشف عن شخصية قوية ومثابرة، تخط الحروف في ثقة وعزيمة . لقد بدا واضحاً أن ليوبولدو كان مستمتعاً في الاستغراق في متعته.

كان قد عكف على كتابة هذا العمل قبل ذلك بسبعة أعوام تقريباً، وككاتب مدَقّق، قادته رغبته في الإتقان إلى الْتهام كل الأعمال الأدبية المتوفرة حول الموضوع.في الواقع، كانت العقدة في غاية البساطة، ووفقاً لما يهوى.كان كلب صغير من المدينة قد رأى نفسه فجأة مبعوثاً إلى القرية، وهنالك، كان ليوبولدو يتمثل تسلسل الوقائع في ذهنه على نحو واضح، وجد الحيوان المتمدّن المسكين نفسه مُكرها

على مواجهة شيهم[1] ومصارعته حتى الموت.وقد كلّف اختيار الطرف المنتصر في هذه المعركة ليوبولدو ليالي مديدة من السّهد والأرق . كانت الخطورة تكمن في أن القرّاء الرديئين سيفسرون كلا الخيارين على نحو رمزي، وهو ما عظّم شعوره بالمسؤولية ككاتب.فخروج الكلب منتصراً يمكن أن يفسر كبرهان على أن الحياة في المدن لا تتعارض و قيم الشجاعة، والقوة والرغبة في القتال، ولا تقلل من أهمية استبسال الكائنات الحية عند مواجهة الخطر. وعلى العكس من ذلك، إذا انتصر الشيهم، فسيكون من السهل الاعتقاد (خطأً وتعجّلا) أن قصّته تنطوي على نيّة نقد لاذع مبيتة للحضارة والتقدم. لكن، ماذا عن العلم؟ و السكك الحديدية والمسرح والمتاحف والكتب والدراسة؟في الحالة الأولى، يمكن أن نسمح لأنفسنا بالاعتقاد أنه يدافع عن حياة أكثر تحضّراً، بعيدة عن أي صلة بالأرض الأم التي سيكون انتصار الكلب دعوة صارخة لتجاوزها. كان يمكن لقرار متسرّع أن يورّطه في هذا الاتّجاه .لكن الله وحده يعلم أن لا

---

(1) ذكر القنافذ–جنس حيوانات لبونة قاضمة يعلو جسمها من قمة الرأس إلى طرف الذّنب شوك كالمسالّ متفاوت الطول والغلظ.

شيء أبعد من ذلك عن تفكيره. أخذ يتنبّأ بالانتقادات القاسية التي ستظهر على صفحات الجرائد: «ليوبولدو رالون، الكائن لفائق التحضّر، يكتب قصّة متطاولة، يسمح لنفسه فيها، بادعاء وتكلّف لا حدود لهما...إلخ». ومن جهة أخرى، إذا كانت الغلبة للشيهم، فإن الكثيرين سيظنّون أنه يريد التّلميح إلى أن حيواناً وحشياً كثيف الشعر بوسعه أن يطيح بالسنوات الممتدة زمناً سحيقاً والتي أمضاها الإنسان في سعيه نحو حياة أكثر رفاهية،وأيسرَ، وأكثر تحضراً. وأكثر روحانية في نهاية المطاف. على مدار أشهر استنفد هذا الجدل جُلّ وقته. لقد أمضى الليلة تلو الليلة متقلّباً على فراش أرَقه حتى مطلع الفجر باحثاً عن النور. كان أصدقاؤه يجدونه أكثر قلقاً وشحوباً من أي وقت مضى، بالهالتين السوداوين حول عينيه وقد باتتا أكثر وضوحاً. نصحه المقرّبون منه بأن يذهب لزيارة الطبيب، ويستريح قليلاً، غير أن ليوبولدو، وكما حدث في مناسبات أخرى (آنَ كان منهمكاً في كتابة قصّة الطائرة المسافرة بين الكواكب أو قصّة المرأة التي كان عليها أن تكسب قوت عيالها المساكين،تحت ضوء المصباح، وفي البرد القارس) طمْأنهم مطلقاً تنهيدته المتعبة الخاصّة به:

«أنا بصدد كتابة قصّة، هذا كل ما في الأمر»، والحق يقال، إنهم كانوا سيسعدون لو أن واحدة من تلك القصص قد رأت النور يوماً.لكنّ ليوبولدو لم يكن ليطلعهم على الأمر، ليوبولدو كان شديد التواضع، ليوبولدو لم يكن يكترث للمجد.ذات يوم رأى اسمه في الجريدة: «يصدر الكاتب ليوبولدو رالون قريباً مجموعة قصصية» هذا ما ورد فقط وسط خبرين مشئومين أحدهما عن فنان سينمائي كُسرت قدمه والآخر عن راقصة باليه أصيبت بالزكام. حتى هذا الاعتراف الصريح بعبقريته لم يكن ليجعله يزهو بنفسه .كان يسخر من العظمة إلى درجة تجعله يعزف حتّى عن إنجاز أعماله.بل إنه لم يكن في بعض الأحيان يكلّف نفسه عناء البدء بها.وبالطبع، فإن عدم التعجل كان أمراً مفروغاً منه. لقد سمع أو قرأ أن جويس وبروست كانا ينقّحان أعمالهما مراراً وتكراراً.ولهذا السبب اعتاد أن يترك في كل ما ينتجه تفصيلاً فضفاضاً أو غموضاً يحتاج إلى إيضاح.لا نعرف أبداً متى ستجيء لحظة الحسم.فلكلّ موهبة دورة تبلغ فيها ذروتها مرّة كل سبع سنوات.آه!كم من أسابيع وأيّام كانت تهُدر قبل أن تأتي الكلمة المناسبة، وتتموضع في المكان

المناسب، مكانِها الوحيد الذي لا يمكن تبديله.

-كان بوسع ليوبولدو أن يقرّر موت الكلب (فعلى كل حال، كان لديه أسباب قوية ليقوم بذلك)، إلاّ أنه اختار في نهاية الأمر انتصاره. فإذا كان هو نفسه يكتب أعماله بمحبرة لا يفيض حبرها حتى في الطائرة، و بمجرد إدارة قرص الهاتف مرتين أو ثلاث، يمكنه أن يتّصل بصديق عزيز عليه على بعد آلاف الكيلومترات من الجبال والوديان. وإذا كان،بطلب منه كذلك، يمكنه أن يعثر بين يديه على عمل كان صاحبه قد كتبه على صفائح من الشمع قبل ألف عام، وكل ذلك يبدو له رائعا، فلا بد إذن من أن يركن إلى أن الكلب هو الذي يجب أن يتوّج بالنصر.«نعم عزيزي الحيوان الشّجاع، حدّث ليوبولدو نفسه قائلاً، عليك أن تصرعه.هذا أمر حتمي.أؤكد لك أنك ستربح المعركة». وكان الكلب على وشك الانتصار حقاً.ما إن ينتهي ليوبولدو من قراءة كتاب كاتس، حتى يكون الكلب قد انتصر نهائياً.

ولم يكد ليوبولدو يركن إلى خياره الحاسم هذا، حتى وجد نفسه فجأة أمام عقبة جديدة:إنه لم ير في حياته شيهماً قطّ.

عندها فكّر أن عليه أن يبحث في أمر الشياهم . كان مقتنعاً

بأن خصمَ كلبِه لا بد من أن يكون شيهماً.فهذا سيكون أغنى بالإيحاءات.إن حقيقة تسلّح هذا الحيوان الفريد بأشواكه قد استرعت انتباهه منذ اللحظة الأولى. ورشْقُه هذه الأشواك كان في نظر ليوبولدو فرصة ثمينة للتلميح على نحو عابر، إلى مجتمعاَت من البشر، هي لحسن الحظ منقرضة الآن أو تكاد، كانت منذ آلاف السنين تستخدم سهاماً في الحرب. ناهيك عن تمكنه-بفضل مهارته المعهودة-من العثور على طريقة يلمح بها تلميحاً مبطّنا إلى ذلك الجواب الرائع من قبل، (من يا تُرى، تساءل) الذي رُدّ به على تهديد العدوّ حين قال في غطرسة«سنحجب الشمس بسهامنا» (1):

فكان الرّد «هذا أفضل، سنقاتل في الظل».

كان يدرك جيداً، أنه لو كان خصم الكلب أسداً (حتى وإن كان هذا الحيوان أغنى بالإحالات التاريخية الأدبية)، فإن انتصار الأول سيصبح أكثر جدلية إلى حدّ ما.لا شكّ في

(1) إشارة إلى ما حدث في معركة تيرموبيلاي بين الفرس واليونان التي وقعت في 11 أغسطس عام 480 قبل الميلاد في تيرموبيلاي وانتهت بانتصار الفرس.عشية المعركة، قال أحد الجنود اليونانيين في يأس إن الفرس سيحجبون الشمس بسيوفهم، فردّ عليه جندي اسبرطي يدعى دينيكيس:هذا أفضل، سوف نقاتل في الظّل».

أنه قد رأى الأسد في حديقة الحيوانات، لكنّ الأسد، قطعاً، لا يفيد في شيء هنا. كان يمكن للأفاعي أن تفيَ بالغرض لكنها تحمل الكثير من الإحالات اللّاهوتية التي يصعب تجاهلها في قصّة كتلك التي كان ينوي كتابتها. كانت تكفيه إشكالية المدينة–القرية. ولا مجال هنا للتفكير في عنكبوت أو أية حشرات أخرى سامّة. لأن الخصومة غير المتكافئة، في هذه الحالة سوف تصدّ القارئ. وهكذا اكتملت لديه البراهين على أن الخصم لا بد من أن يكون شيهماً. فمع الشيهم تصبح فرص الهزيمة (مع الأخذ بالحسبان مقولة «سنقاتل في الظل») أكبر وأكثر قابلية للتحقيق.

أصيب ليوبولدو بخيبة أمل عندما قرأ في الكتاب أن الكلاب أقل ذكاء مما يظن كثير من الناس. صحيح أن غرائزها تتطوّر تطوّراً مذهلاً يكاد يكون أكثر إدهاشا مما هو عند الخيول– التي بقليل من التدريب تصبح قادرة على حل مسائل رياضية– لكنّها، يا سادتي، من الذكاء، مما نسميه ذكاء، لا تمتلك شيئاً، لا شيء على الإطلاق، وبالتالي فإن عليه أن يقرّر انتصار بَطَله وفقاً للعلم وليس وفقاً لمخططاته وبالطريقة التي يهواها. فكر في حزن أن الحيوان المسكين

الواقع في الشرك قادر على عضّ رقبة خنزير بري لكنّه لا يقدر أبداً، ومهما كان، على التقاط حجر عن الأرض وتصويبه إلى رأس عدوّه (أخذ ملاحظة). ومن جهة ثانية، ألا يُعدّ تناول الكلاب العقارَ بنفسها عند إصابتها بالمرض عملاً ذكياً؟كم من الناس الذين نعرفهم، يمتلكون تلك المهارة؟ عندها تذكّر ذاك المهندس، لِمَ لا يكتب قصّته؟ ففترة مراهقته، إذا ما تأمّلها عن كثب، مليئة بموضوعات جديرة بأن تحوّل إلى قصص.

على الطاولة، كان المهندس يتخذ مقعداً إلى جانب الطبيب. وعلى النقيض من (حامل الليسانس)، كان لا يكاد يتحدث، لعلّ شخصيته الصّموت تلك، التي لا تخلو من الغموض، تصلح حتى لأن تكون رواية جيدة . حيث يمكن أن يُفتتح السّرد على النحو التالي، بكل تلقائية:

«ذات ظهيرة شديدة الحر، وبينما كنا ذاهبين للجلوس إلى الطاولة، رأينا المهندس مُقبلاً علينا، من كان ليخطر له آنذاك أنه كان يخفي في داخله مجرماً؟ أتذكر أن القصة بدأت عندما كشف الطبيب للمهندس، باهتمامه المعهود، أن لون عينيه يقلقه.

-«لا أريد أن أكدِّرك، لم يمض يومان بعدُ على وجودك

معنا في هذا النزل. كلاّ، ولا بأي شكل من الأشكال. لكنه سيكون عذاباً شديداً لضميري في المستقبل، كصديق وكمِهْني، ألا أنبّهك ....، اسمح لي أن أقول لك، يا سيدي، إن كبدك لا تعمل جيداً.

يُقطعُ الحوار فجأة من أجل الشرح المفصّل للمراحل المختلفة من الكُره المتصاعد بين الرجلين: بيانُ أن المهندس لم يشعر بالخجل ولم يخضع تحت أي ظرف. الأمر الذي لم يكن الطبيب ليغفره.وأن المهندس، حين أصيب بالمرض، فعل كما تفعل الكلاب:امتنع عن الأكل.و علاوة على ذلك، هرع بنفسه إلى الصيدليّة وطلب عقاراً وتجرّعه دون أن يخبر أحداً، وأن أحداً لم ينتبه إلى ذلك إلا بسبب ذهابه وإيابه المتكررين والصامتين، أثناء الليل، في الأروقة. ياللعجب! أي قصّة هذه! قال ليوبولدو.استعاد بقوّة كُره الطبيب للمهندس كما لو أنه قد رآهما بالأمس، وكيف أن الأول أخذ يتحدث بوتيرة تثير الغضب عن قرب موت الثاني، دون أن يتخيل أن موته هو أيضاً كان قريباً بالدرجة نفسها.

لاحقاً، عاش المهندس مسجوناً في غرفته، وأخذ يتخيل بلا كلل (والسبب على الأرجح تهيّج مقلتيه) إنشاء نفق

تحت–أرضي في مضيق المانش وقناة تحت–أرضية في برزخ (تيوانتيبك)[1]. وفي النهاية : ترْكُ بعض الوقت يمر ثم جمْعُ كلّ النزلاء في غرفة الطعام تحت ذريعة الاحتفال العائلي. الطبيب في الانتظار، والمهندس كذلك، ثم،هكذا ببساطة، وصفُ الكيفية التي اكُتشف بها هذا الأخير في غرفته وفي يده خنجر ملطخ وكان يحدق بقوة (كدجاجة منومة مغناطيسياً، دوّن ليوبولدو) في جثة عدوّه منبطحة على الأرض وسط بحر مرعب من الدم الأحمر القاتم.

وللأسف، لم يكن ليوبولدو ليستطيع إنهاء حكايته بجعل الكلب يتناول عقاره بغريزته المحضة أو بالإطاحة بالشيهم بعدّة لكمات.فكلبه بقي يتمتع بصحة جيدة تحت كل الظروف.كانت المشكلة هي في ألا يجعله يقاتل بغير سلاحه الطبيعي، بأن يضعه في مواجهة ضارية حتى الموت أمام حيوان يراه للمرة الأولى.انتابته مشاعر يأس وإحباط كما في كلّ مرّة. إنه يصطدم في كل خطوة بصعوبات لا يمكن التغلب

---

(1) برزخ تيوانتيبك هو المنطقة الواقعة بين ولايات أوكساكا وشياباس وتاباسكو، وفيراكروز في المكسيك. وهي المنطقة الأضيق بين المحيطين الهادي والأطلسي .

عليها، بصخور هائلة تحول بينه وبين إنجاز روايته. لقد تردّد إلى مكتبات كثيرة بحثاً عن معلومات حول الكلاب. والآن وبعد أن ألمّ بكّل شيء حولها، اكتشف أنه يجهل كل شيء عن الشياهم. إنه قلق لا حدود له: اليوم شكٌّ، وغداً، حيرة أخرى. كان عليه الشروع في بحث طويل معمّق عن عادات الشياهم، وعن طرائقها في العيش. وغرائزها، والتعرف على درجة ذكائها والتحقق من أنّها قادرة على مواجهة الكلاب أم أنها تستسلم دوماً بين أنيابها. ها هي الشكوك تعاوده من جديد: إذ تساءل في قلق -كما في مرّات سابقة- إن كان كتّاب آخرون قد تناولوا هذا الموضوع من قبل، مما يطيح مرّة واحدة بكلّ ما بذله من جهود عبر سنوات طوال. لكنّه عزّى نفسه حين خطر له أنّ القصّة وإن كانت قد كُتبت في السّابق، فإن لا شيء يمنعه من إعادة كتابتها على غرار شكسبير وليون فيليبي Leon Felipe[1]، اللذيْن، كما هو معروف، استعارا موضوعاتهما من مؤلفين آخرين، فأعادا صياغتها و أضفيا عليها من روحهما الخاصة، وحوّلاها إلى تراجيديات من

(1) فيليبي كامينو غاليسيا دي لا روسا، والمعروف باسم فيليبي ليون.
(إسبانيا 1884-المكسيك 1968) شاعر إسباني ينتمي لما عرف بجيل الـ27 .

الدرجة الأولى.ورأى أنه، في كلّ الأحوال، كان قد قطع شوطاً كبيراً بحيث لا يمكنه التوقف في تلك اللحظة وبعد كلّ تلك السنوات من العمل المُضْني.لقد بات يلاحظ منذ وقت،متألّما، أن جيرانه لا يستطيعون منع أنفسهم من تبادل نظرات ارتياب في كل مرّة يعلن فيها أمامهم أنّه بصدد كتابة قصة..آه، سيروْن إن كان لا يكتبها فعلاً!ولكن،ماذا لو كانوا محقين؟احمرّ خجلاً. لا شعورياً، وشيئاً فشيئاً، غرق في متاهة من التّخيلات كان يدرك جيّداً أن عليه الخروج منها في أسرع وقت كي لا يصاب بالجنون،وأن الطريقة المثلى في الهروب منها تكمن في مواجهة المشكلة، في كتابة شيء ما، أي شيء يبرر به الهالتين السوداوين حول عينيه، وشحوبه وكلامه المتكرر عن عمل وشيك سيصدر له.من المستحيل منذ تلك اللحظة أن يقول بكل هدوء:«حسناً، أنا صرفت النظر عن الكتابة.لست كاتباً.وأكثر من ذلك، أنا لا أريد أن أكون كاتباً.» كما أنه، من جهة ثانية، كان قد أخذ على نفسه عهدا بأن يبرهن لليوبولدو رالون على أن موهبته كانت حقيقية، وأكثر من ذلك، أنه يريد أن يكون كاتباً.كانت تلك هي

أول مرة يخطر له فيها أن يروي كيف اتخذ قراره بدخول جمهورية الأدب، عاد إلى يوميّاته وقرأ فيها:

الثلاثاء 12

اليوم استيقظت باكراً لكنّ شيئاً لم يحدث لي.

الأربعاء 13

نِمْتُ طوال الليل، حين استيقظت كان المطر قد بدأ يهطل. ليس عندي أية مغامرة أسجلها في مفكّرتي العزيزة،كلّ ما في الأمر، أنه،وفي حوالي الساعة السابعة، اهتزت بنا الأرض ونزلنا جميعنا راكضين نحو الشارع، لكن.بما أن الجوّ كان ماطراً، فقد تبلّلنا قليلاً، والآن يا مفكّرتي العزيزة، أقول لك، إلى الغد.

الجمعة 15

أمس كنت نسيت أن أدون ملاحظاتي عن مغامراتي، ولكن.بما أنه لم يكن عندي مغامرات أصلاً، فلم أهتم لذلك. ليت السماء تمنحني غداً خمسين سنتاً لأنني أود مشاهدة فيلم يقول الجميع إنه جميل جداً يموت في نهايته قاطع الطريق. تصبحون على خير.

السبت 16

هذا الصباح خرجت من البيت أتأبّط كتاباً،كنت أريد بيعه لأحصل على الخمسين سنتاً.كنت على وشك الوصول حين التقيت السيد خاسينتو Jacinto. الرجل الذي يسكن في النّزل وكنت أشعر بالخجل حقاً لأنه يقرأ كثيراً، سوف أدون هذا الأمر لأنه بمثابة مغامرة لي.وحين رأى الكتاب قال آه، أنت تحب الأدب إذن ؟ شعرت بالخجل حقاً وقلت «نعم». ثم واصل هو أسئلته وواصلت أنا أجوبتي. وهل تحب الكتابة، أيها الشاب؟ نعم أنا أكتب دوماً.وماذا تكتب قصائد أم قصصاً؟قصصاً؟!أود أن أطّلع على بعض منها.لا، إنها سيئة للغاية وأنا ما زلت في بداية الطريق.هيا،توقف عن التواضع وتقديم الأعذار، لقد لمحت فيك موهبة فذة وأنا ألاحظ منذ فترة طويلة أنك تكتب كثيراً. كلاّ، مجرد كتابات متواضعة. متى ستطلعني على واحدة منها؟حينما أُنهي تلك التي أنا بصدد كتابتها.لا بد أنها جميلة جداً.حتى الآن يمكن أن تعتبرها متوسطة المستوى. سأخبر جميع من يجلسون معنا على المائدة إنه يوجد بيننا كاتب عظيم نجهله»،وفي أثناء تناولنا الغداء، قال لكل أولئك الجالسين على المائدة إنني

كاتب عظيم مجهول.فشعرت بالخجل حقاً واضطررت لأن أقول «نعم». غداً سوف أبدأ في كتابة قصة.هذا أمر سهل، ما علي إلا أن أتخيل أي شيء وأكتبه.ومن ثم أقوم بطباعته. لم أتمكن من رؤية الفيلم لكن خوان روى لي الأحداَث كاملة بِدئا من المنتصف لأنه كان قد وصل متأخراً.وقال لي إنه انتهى بمقتل قاطع الطريق.ولكن من الأفضل أن أمحوَ كل ما كتبته اليوم لأنه لا يشكّل مغامرة. ما عشته اليوم لم يكن مغامرة.

هكذا كان أن ولدت موهبته ككاتب.منذ ذلك اليوم وهو يدوّن الملاحظات بلا توقف، وينسج السيناريوهات، ويبحث عن مواضيع تصلح للمسرح، وروايات بوليسية أو غامضة، وروايات عن الحب أو عن الخيال العلمي، مستخدماً ضمير المتكلم، أو الأسلوب غير المباشر، بصيغة الرسائل أو المذكّرات اليومية، في شكل حوارات أو دون حوارات.حكايات يقف لها شعر الرأس وجدت في صندوق على الشاطئ، وأحياناً أخرى حكايات تصف بهدوء المدن وعادات الناس.غير أنّ لحظة الإمساك بالريشة أخذت تبتعد بابتعاد الزمن.كان يسجل الوقائع ويختار

الموضوعات. يراقب ويتأمل بعمق في كل وقت وكل مكان. لكن الحقيقة هي أنّه،وعلى الرغم من موهبته التي لا شك فيها- لا يكاد يكون قد كتب شيئاً.لم يشعر لحظة بالرّضا عن نفسه، ولم يغامر يوماً في الوصول إلى النهايات.لا، لم يكن ثمة داع للاستعجال. كانت سمعته ككاتب أمراً لا نقاش فيه بين أصدقائه.وهذا الأمر كان يريحه، لعلّه سيفاجئهم يوماً برائعته التي ينتظرونها منه.قبلت زوجته الارتباط به لأنها كانت معجبة بمكانته الاجتماعية.لم ترَ أي عمل منشور لزوجها، لكنّها، أكثر من غيرها، كان يمكن أن تشهد في ثقة أنه كان يمتلك صندوقاً مليئاً بالبطاقات، وأنه في كل لحظة كان يملأ قلمه بحبر أزرق مُلهَم، وأن خياله كان يقظاً على الدوام، وأنه كان يتحدث دوماً عن قدرته على كتابة قصة من أي شيء كان، من أشياء بالغة التفاهة.

وفي سعيه لأن يبرهن لنفسه على أنه كاتب حقيقي، انصرف ذات يوم بكل طاقته نحو كتابة قصّة.ذات صباح، وبعد أن ترك وعيه الباطن يعمل طيلة الليل، استيقظ مُلهما. خطرت له فكرة أن النزال بين كلب وشيهم تيمه تيمة رائعة. لم يدع ليوبولدو هذه الفكرة تهرب، وانكب عليها بحماس

متّقد.لكنه لم يلبث أن أدرك أن اختيار الموضوع أسهل بكثير من معاًلجته وإعطائه شكلاً . خطر له عندها أن الثقافة هي ما كان ينقصه، فشرع يقرأ بنهم كل ما يقع بين يديه.وخاصة ما يتعلق بالكلاب، وبمُضيّ الوقت، شعر بقدر من الثقة وحين وجد الظروف مواتية، أحضر كمية كبيرة من الأوراق. أمر بالصمت في كل أرجاء البيت. زين جبهته بواق أخضر ليحمي عينيه من أضرار النور الكهربائي، ونظف قلمه. جلس على الأريكة جلسة تمنحه أكبر قدر من الراحة. قضم أظافره. نظر بذكاء إلى جزء من السقف، وببطء، ودون أية مقاطعة سوى من دقات قلبه المُنفعل، كتب:

«في يوم من الأيّام، كان هنالك كلب شديد الجمال يعيش في بيت، كان عريق النسب صغير السن.كان سيّده رجلاً غنياً يلبس خاتماً ظريفاً في إصبعه الصغير، وكان يمتلك عزبة في الريف حيث أراد ذات يوم أن يذهب لقضاء بعض الوقت وتنسم الهواء النقي، كان يشعر بأنه مريض، لأنه كان يعمل بمشقة في تجارة الأقمشة، الأمر الذي أتاح له شراء عزبة وكذلك الذهاب إلى الريف.فكر إذن أن يصطحب الكلب الصغير معه، لأنه إن لم يعتن به بنفسه فإن الخادمة ستهمله

وهكذا سيعاني الكلب الصغير لأنه اعتاد على الاعتناء به جيداً. وحينما وصل إلى الريف مع أعز أصدقائه—الكلب—إذ كان أرملا وجد الأزهار جميلة جداً لأنه الفصل هو الربيع وفي هذا الفصل تكون الأزهار جميلة لأنه موسمها».

لم يكن ليوبولدو يفتقر إلى الحس النقدي. فهم أن أسلوبه لم يكن جيداً إلى الحد المطلوب. وفي اليوم التالي، اشترى كتاباً في علم البلاغة وآخر في النحو بيللو كويربو Bello-Cuervo[1]. لكنّ كلا الكتابين زادا ذهنه تشوشّا. فكلاهما يعلم المرء كيف يكون كاتباً جيداً لكن أياً منهما لا يعلمه ألاّ يكون كاتباً رديئاً. ومع ذلك، بعد مرور عام لم يبذل خلاله جهودا تُذكر، وجد نفسه مهيّأ للكتابة.

«الكلب حيوان جميل ونبيل، لا يمكن أن يجد المرء صديقاً أفضل منه حتى بين البشر الذين يشيع بينهم إلى حدّ مؤلم الجحود والافتقار إلى النزّاهة. في منزل أنيق يتخذ موقعاً جيداً من المدينة، كان يعيش كلب عريق النسب، كان صغيراً لكنّه كان يمتلك شجاعة كبيرة. كان سيد هذا الكلب رجلاً غنياً مقتدراً، يمتلك بيتاً ريفياً. كان متعباً من انشغالاته المتعددة

(1) اسم مرجع مهمّ في قواعد اللغة الإسبانية.

والمهمة، فقرر ذات يوم أن يقضي بعض الوقت في مسكنه الريفي،لكنّ رجل الصناعة المحسن والثري هذا اصطحب معه كلبه الوفي لأنه قلق بسبب المعاَملة السيئة التي يمكن أن يتلقاها في غيابه من قبل خدمه الفاسدين. نعم، لقد خشي أن يعاني الكلب بسبب فظاظة الخدم وكسلهم ولا مبالاتهم».

«الريف جميل جداً في الربيع.فيه تتفتح تويجات الأزهار فتبهر نظر الزائر الأغبر، وُتسمع زقزقة العصافير المرحة المنتشية كأنها أعياد في أذني الزائر المتعطش.آه يا فابيو! ما أروعها الحياة في الريف في فصل الربيع!».

ها قد أتقَنَ القواعدَ والبلاغةَ.

وبمعاَلجة هذه النقطة الهامة، حان الوقت لكي يواجه الحيوانُ النبيلُ الجميل الشيهمَ .كان ليوبولدو قد ملأ أكثر من مائة واثنتين وثلاثين صفحة بكتابته الدقيقة الواضحة(وإن كان في الواقع قد أتلف ثلاثاً وخمسين منها). كان يأمل أن يكون عمله متقناً أشد إتقان، وأن يقول كلّ شيء عن طريق هذا الموضوع البسيط.لم تستغرقه تأملاته حول الزمان والمكان أقل من ستة أشهر من الدراسة.وأما بحثه في مسألة من أفضلُ صديق للإنسان، الكلب أم الحصان، وحول الحياة

في الريف والحياة في المدن، وحول الصحة البدنية والصحة النفسية(ناهيك عن ترجمته المستجدة للعبارة اللاتينية mens sana in corpore sano [1] حول الكلاب المدرّبة، حول نباح الكلاب على القمر، حول الطريقة التي تتملق بها الكلاب، حول المروضين وحول ديوجين، حول رينتينتين Rin Tin Tin [2] وعصره (الكلب الذي بلغ قمم الفن الرّفيعة)، حول القصص الخرافية وحول من هو المؤلف الحقيقي لحكايات إيسوب بكل الأسماء التي لا تحصى والتي أخذها هذا الاسم بالإسبانية، كل ذلك كلفه أكثر من عامين من العمل المثمر. كان يرغب بكل جوارحه أن يخرج عمله مزيجاً من موبي ديك، والكوميديا الإنسانية، والبحث عن الزمن الضائع.

كان قد مضى على ذلك عدة شهور.

حين التقينا به، كان قد غير رأيه. ووجدناه مهموماً هذه

---

(1) قول لاتيني مأثور لجوفينال وهو ما يترجم اليوم إلى «العقل السليم في الجسم السليم».

(2) رين تين تين هو الاسم الذي حملته تباعاً مجموعة من الكلاب قامت بأدوار في السينما والتفزيون.و أصبحت تعد من نجوم هوليوود في منتصف القرن العشرين.

المرّة بالإيجاز. فما جدوى الإطناب في الكتابة، بينما يمكن للمرء أن يقول كل شيء، كل شيء حقاً، في موجز لا يتعدى الصفحة الواحدة؟ مقتنعاً بهذه الحقيقة، أخذ يشطب ويمحو بلا رحمة، في إيمان خالص بتوجهه الفني الجديد، وبروح تضحية نبيلة في كثير من الأحيان.

في اليوم الذي رأيناه يدخل المكتبة، وُجد عمله، الذي أوجز إلى أقصى درجة، على هذه الحالة تقريباً:

«كان كلباً طيباً، صغيراً، مرحاً. ذات يوم وجد في بيئة غريبة عليه: القرية. ذات صباح، كان شيهم....»

أغلق ليوبولدو كتاب كاتس، الذي لم يجد فيه أية معلومة عن الشياهم. سأل عن كتب يمكن أن تدلي بأية معلومات عنها، فكان الجواب أنه، وعلى نحو مجحف، لم يكتب عنها سوى القليل القليل. لهذا كان عليه أن يكتفي بمعلومات موجزة زوده بها «قاموس لاروس المرفق بالرسوم التوضيحية:

«خنزير: اسم مذكر (بوركوس) باللاتينية. من الثدييات، مزدوجات الأصابع أليف. في اللغة العامية: رجل قذر وفظ: «يتصرف كخنزير».

شيهم: من الثدييات القواضم من شمال أفريقيا، له جسم

مغطى بالأشواك، الشيهم حيوان ليلي مسالم يتغذّى على الأعشاب والفاكهة.في اللغة المحلية الشعبية: «لكل خنزير قديسه المارتن» تعني: لكل شخص أجله المحتوم، للخنزير الأكثر قذارة تذهب أفضل ثمرة بلوط» ويعني:الثروة تذهب غالباً لمن لا يستحقها. الخنزير حيوان باهظ الثمن لأن كل أجزائه قابلة للأكل والفائدة: لحمه الذي يجب أن يطهى جيداً عند الأكل، يمكن حفظه جيداً مملحاً (عن طريق التمليح). ودهنه الملتصق بالجلد، يمثل الشحم، يذوب ويخزن في قوارير، فيستعمل كالسمن. شعره الكثيف (الحريري) يستخدم في صناعة الفراشي والمكانس. الخنزير حيوان تسهل تربيته واقتناؤه، يعيش هذا الحيوان على الفضلات والمخلفات من كل نوع حين لا يتوفر البلوط أو الكستناء أو البطاطا المفضلة لديه».

–غداً، قال ليوبولدو، سأقوم برحلة إلى الريف كي أبحث في ذلك.

رحلة إلى الريف!أي قصّة جميلة سوف يكتب يا ترى!

حفل الموسيقى

دقائق قليلة وستجلس بكل أناقة أمام البيانو، هاهي تتأهب لتتلقّى احتفاء الجمهور الصاخب بانحناءة لا تكاد تلحظ. سيلتمع ثوبها المكسوّ بالشذر كما لوكانت نيرانه انعكاساً للتصفيق المتسارع من قبل مئة وسبعة عشر شخصاً يملأون القاعة الخاصة الصغيرة، وسيقرّ أصدقائي أو يرفضون—لن أعرف أبداً—نيتّها تقديم ما أظنّه أجمل موسيقى في العالم.

هذا ما أعتقده، لا أعرف.. باخ، موزارت،بيتهوفن، لقد اعتدت سماع ألا أحد يمكنه أن يفوق هؤلاء،وبلغ بي الأمر أن تصورت ذلك أيضاً، بل وبتّ أؤكده. شخصياً، كنت أفضل أن لا أجد نفسي في هذا الوضع، بل أنا على يقين،في أعماقي، أنهم لا يعجبونني وأشك في أن أحداً يعرف كم هو كاذب ما أبديه من حماس لهم.

لم أكن يوماً محباً للفن،ولو لم يخطر لابنتي أن تصبح عازفة بيانو لما واجهت هذا المأزق الآن،لكنّني والدها وأعرف واجبي وعليّ أن أستمع إليها وأن أشجّعها. أنا رجل أعمال ولا أشعر بالسعادة إلا حين أدير شؤوناً مالية.أكرّر: أنا لست

فنّاناً ولكن إن كان ثمة فن في مراكمة الثروات، وفي سحق المنافسين و بسط الهيمنة على السوق العالمي، عندها أدعي أنني الأول في هذا الفن.

الموسيقى جميلة،هذا مؤكد،لكنني أجهل إذا ما كانت ابنتي قادرة على إعادة خلق هذا الجمال. هي نفسها تشكّ في ذلك. لقد رأيتها تبكي في أحايين كثيرة بعد انتهائها من العزف على الرغم من تصفيق الجمهور، وإذا ما صفق أحدهم دون حماس فإن لديها القدرة على اكتشافه من بين الحضور، فتتألم لذلك وتبقى تكرهه كرهاً شديداً أبد الدهر. بيد أنه من النادر أن يصفق لها أحد بفتور، فقد علّمت التجارب أصدقائي المقربين أن انعدام الحماس في التصفيق أمر بالغ الخطورة، قد يتسبب في دمارهم. فإن هي لم تومئ لهم بأنها اكتفت بهذا القدر من التشجيع، واصلوا تصفيقهم طيلة الليل وقد تملك كل واحد منهم الخوف من أن يكون أول المتوقفين. أحياناً ينتظرون أن يلحظوا الملل والتعب على وجهي أنا حتى يتوقفوا عن التصفيق، عندها أتأمل كيف يراقبون حركات يدي خشية أن أسبقهم إلى الصمت. لقد خدعوني في بداية الأمر،كنت أظنّهم متأثرين حقاً لكنني

بمرور الوقت عرفت حقيقتهم، فتملكني شعور قوي ومتنام بالكراهية. لكنني أنا نفسي كنت مخادعاً ومنافقاً، فقد كنت أصفق بلا اقتناع.أنا لست فنّاناً. الموسيقى جميلة لكن في الحقيقة لا يعنيني إن كانت كذلك . وهي تضجرني . كما أن أصدقائي أيضاً ليسوا فنانين،لكنني أحب أن أعذبهم.كما أنني لا أكترث كثيراً لآرائهم.

ثمة آخرون يثيرونني. يتصدرون الصفوف الأمامية دائماً، ويدونون الملاحظات في مذكراتهم لحظة بلحظة. وهم يتلقون دعوات تخطها ابنتي بيدها وترسلها لهم شخصيّاً . هؤلاء أيضاً أمقتهم. بالطبع هم يهابونني وفي كثير من الأحيان يمكنني أن أشتريهم. لكنّ اثنين أو ثلاثة من بينهم كانت وقاحاتهم تتجاوز كل حد إذ بلغ بهم الأمر أن يقولوا عن ابنتي إنها «مجرد منفذة رديئة لأعمال الآخرين». ابنتي ليست عازفة بيانو سيئة، وهذا ما أكده لي أساتذتها بأنفسهم. إنها تدرس الموسيقى منذ نعومة أظفارها وهي تتنقّل بأصابعها بيسر ورشاقة لا تتحلى بهما أيّ سكرتيرة لديّ. صحيح أنه من النادر أن أفهم شيئاً مما تعزف، لكنّني لست فنّاناً وهي تعرف ذلك جيداً.

إنّ الحسد خطيئة بغيضة وقد يكون هو السر وراء الانتقادات السلبية التي يبديها أعدائي. ليس مستغرباً أن يكون وراء تلك النميمة واحدٌ من هؤلاء الذين يتسمون الآن وسيصفقون بعد لحظات، فأن يكون لها أب ذو نفوذ أمر له إيجابيّاته وسلبيّاته في آن.

إنني أتساءل: كيف كانت الصحافة ستحكم عليها لو لم تكن ابنتي؟ أنا مقتنع بأنّه ما كان ينبغي لها أن تدّعي أي موهبة فنية، فهذا الأمر لم يجلب لنا سوى الشكوك والقلق. ولكن قبل عشرين عاماً ما كان ليخطر لأحد أنّني سأصل إلى ما وصلت إليه اليوم، فلا هي ولا أنا بوسعنا أن نعرف يقيناً الآن ما نحن عليه وما قيمتنا الحقيقية. هذا الانشغال سخيف بالنسبة لرجل مثلي.

لو لم تكن ابنتي لاعترفت بأنني أكرهها،فأنا حين أراها تصعد إلى خشبة المسرح يحتدم الغيظ في صدري، تجاهها وتجاه نفسي، لأنّني سمحت لها أن تسلك هذا الطريق الخاطئ. هي ابنتي بالطبع، لكن ذلك لا يعطيها الحق أن تفعل هذا بي.

غداً سيتصدّر اسمها صفحات الجرائد وسيتضاعف التصفيق بحروف بارزة، ستنتفخ كطاووس وهي تقرأ لي بصوت عال مديح النقاد لها.لكنّها حين ستصل إلى نهاية المقالات، ربما إلى حيث المديح المفرط والأشدّ إعجاباً يمكنني أن أتخيّل كيف ستغرورق عيناها وكيف سينطفئ صوتها فلا يعود سوى همس خافت لتنفجر بفيض من الدموع التي لا عزاء لها. سأشعر عندها رغم ما أوتيت من نفوذ، بالعجز عن إقناعها بأنها عازفة بيانو بارعة وأن باخ وموزارت وبيتهوفن سيكونون ممتنين لبراعتها في الحفاظ على رسالتهم حيّة .

ها قد ساد الصمت لوهلة إيذاناً بدخولها إلى المسرح، عمّا قليل ستنزلق أصابعها الطويلة المتناسقة فوق مفاتيح البيانو،ستصدح القاعة بالموسيقى ومعها ستبدأ معاناتي من جديد.

....هذا ما يذكّرني، قلت عندها، بقصة ذلك السويدي المسكين أوريست هانسون Orest Hanson، الرجل الأطول في العالم (على الأقل في زمنه) ذلك لأن هذا الرّقم القياسي كثيراً ما يتم تحطيمه.

في العام 1982، قام هانسون بجولة استثنائية في أوروبا مستعرضاً طوله البالغ مترين وسبعة وأربعين سنتمتراً. وقد أطلق عليه الصحفيون، بما يتمتعون به من قوة المخيّلة، لقب الرّجل الزرافة.

تخيلوا قليلاً، بما أن هشاشة مفاصله كانت تمنعه أو تكادُ من القيام بأي نشاط، كان لا بدّ–لإمداده بالغذاء– من أن يتسلق أحدُ أفراد أُسرته غصن شجرة كي يلقي في فمه كراتٍ خاصةً من اللّحم المفروم، و قطعاً صغيرة من سكر الشمندر كتحلية، بينما يقوم قريب آخر بعقد رباط حذائه، ويمضي ثالثٌ حياته في انتظار اللحظة التي يعيد فيها إلى أوريست شيئاً يكون قد سقط من يده على الأرض إهمالاً منه أو لعدم مهارته .يجول أوريست ببصره بين الغيوم مستسلماً لما يقدّم

له من خدمات على الأرض.في الواقع، لم تكن مملكته من هذا العالم ويمكن للمرء أن يلمح في عينيه الحزينتين البعيدتين حنيناً دائماً للعوالم الأرضية.في قرارة نفسه كان يحسد الأقزام على وجه الخصوص وكان يحلم -يائِساً- بأن يصل إلى مقابض الأبواب وينطلق راكضاً، كما كان يفعل في أوقات الظهيرة أيّام طفولته.

كانت هشاشته تفوق كلّ تصور .عندما كان يتنزه في الشوارع، كانت كل خطوة يخطوها تثير في المارّة -حتى الإسكندينافيين منهم - الخوف من أن يسقط سقوطاً مدوّياً. مع الوقت، كشف والداه عن براغماتية صارمة (أثارت كثيراً من الانتقادات) عندما قرّرا ألّا يخرج أوريست من البيْت إلاّ أيّام الآحاد مسبوقاً بعمّه إيريك Erick ومتبوعاً بأولاَف Olaf، الخادمِ الذي كان يتلقّى في قبّعته النقّود التي كانت النفوس الرحيمة تعتقد أن عليها أن تقدّمها مقابل هذا المشهد الذي ينطوي على خطورة بالغة .

ازدادت شهرته يوماً بعد يوم،ولكن كما نعلم لا وجود للسعادة المطلقة .شيئاً فشيئاً بدأ ميلٌ لا يقاوم نحو هذه القطع النقدية يسري في روح أوريست الطّفولية .وفي نهاية المطاف

كان هذا التعلق المشروع بالقطع المعدنية المسكوكة هو السبب المباشر في سقوطه ونهايته الغريبة اللذين سنراهما لاحقاً.

شيئاً فشيئاً حوّله بارنوم [1] Barnum إلى محترف في عالم السيرك، غير أن أوريست لم يشعر بنداء الفن في داخله ولم يكن السيرك يعنيه إلا كمصدر للربح المادي، فضلاً عن أن روحه الأرستقراطية لم تكن تحتمل لا رائحة الأسود ولا التعاطف الذي يبديه الجمهور نحوه .وهكذا ودّع سيرك بارنوم للأبد.

في سن التاسعة عشرة، بلغ من الطول مترين وأربعة وخمسين سنتمتراً، ثم جاءت فترة ركود مُطَمئنة .ولم يعرف طوله النهائي (متران وسبعة وأربعون سنتمتراً) الذي لن يفارقه إلاّ عند موته إلاّ في سنّ الخامسة والعشرين.وقد تم ذلك الاكتشاف على النحو التالي:بعد أن دُعي لزيارة لندن بناء على نزوة طريفة لأصحاب الجلالة البريطانيين. توجه إلى القنصلية الإنجليزية في استوكهولم للحصول على تأشيرة. استقبله القنصل الإنجليزي كأي إنجليزي أصيل،دون إبداء أية دهشة، حتى إنه سأله عن أوصافه الشخصية، مخمناً

(1) سيرك شهير جداً في الولايات المتحدة الأمريكية.

وهو عاكف على تسجيل بياناته بأن طوله قد يكون مترين وخمسة وأربعين سنتمتراً، وحين أشار الجهاز إلى طول قامته البالغ مترين وسبعة وأربعين علا وجه القنصل تعبير يقول «كنت أعرف ذلك جيداً» أما أوريست، بدوره، فلم ينبس ببنت شفة .تقدم في صمت نحو النافذة التي تأمّل من خلالها لدقائق طويلة البحرَ في هيجانه والسماء في شدّة زرقتها وصفائها.

فيما بعد، ضاعف فضولُ ملوك أوروبا عائداته المادية. وفي وقت قصير، غداً واحداً من عمالقة أوروبا الأكثر غنى، وذاع صيته حتى بين شعوب الباتاغون والياكي وإثيوبيا. وفي المجلّة التي كان يديرها روبن داريو في باريس، يمكننا أن نرى صورة أو صورتين لأوريست إلى جانب الشخصياًت الأطول في العالم. نشر الشاعر الكبير هذه الوثائق المصورة في الذكرى العاشرة لموت الفنان تكريماً مستحقاً له وإن جاء بعد موته.

وفجأة لم يعد اسمه يتصدّر صفحات الجرائد.

وعلى الرغم من المناورات الكثيرة الرّامية إلى التكتّم

على الأسباب التي أدت إلى أفول نجمه المفاجئ هذا، فإن ما نعرفه اليوم هو أنه مات ميتة تراجيدية في المكسيك أثناء أعياد المئوية التي دُعي رسمياً للمشاركة بها. وسبب الوفاة هي الكسور الأربعة والعشرون التي راح ضحيّتها حين انحنى لالتقاط قطعة من الذهب (طبع عليها تحديداً كلمة «مئوية» «Centenario»)[1] كان قد رماها له للتو، ممتلأً بحماس وطني مبتذل، رجل غامض من مواليد تشيواوا[2]، اسمه سلفستر مارتين Silvistre Martin كان شرطياً عند الدون بورفيريو دياز Don Porfirio Diaz[3].

---

(1) هو اسم عُرفت به مجموعة المهرجانات الكبرى التي أقيمت في الذكرى المئوية لاستقلال المكسيك ونهاية الكفاح المسلح بعد 300 سنة من الاستعمار الإسباني، لكنّ الهدف الجوهري من هذا الاحتفال الكبير كان إعادة التأكيد على شرعية نظام بورفيريو دياز.

(2) تشيواوا: هي إحدى الكيانات الاثنين والثلاثين الفيديرالية التي تشكل الولايات المتحدة المكسيكية.

(3) خوسيه دي لا كروز بورفيريو دياز موري (1830–1915) العسكري المكسيكي والسياسي الذي شغل منصب رئيس جمهورية المكسيك مرتين، الأولى بين أيار 1877 وكانون الأول 1880 الثانية بين كانون الأول 1884 و أيار 1911 .

لا أريد خداعكم

لم يجر الحفل السينمائي وفقاً للترتيبات المقرّرة له. كانت القاعة ممتلئة عن آخرها. وكان الجمهور المتلهّف ينتظر بفارغ الصبر مضطربا في المقاعد. كان ميكرفون موضوعٌ وسط المنصّة يبعث من وقت إلى آخر طنيناً مزعجاً.

فجأة، أعلن صوت حاد عبر مكبر الصوت أن ممثلي الفيلم، الذي كانوا قد قدموا التوهم من فرنسا سيعتلون المنصّة كي يتوجهوا إلى الجمهور ببعض الكلمات، وأيضاً—وهو ما لم يعلن عبر مكبر الصّوت على الرغم من كونه الأكثر إثارة— كي يظهروا أشخاصاً من لحم ودم. استهلّ الكلامَ عريفُ الحفل، وهو رجل أصلع أنيق، مزيج من خجل وثقة،، وقد اتخذ صوتُه نبرة مِهْنية مزيفة كشفت منذ الوهلة الأولى عن افتقاره للخبرة.

بدا وكأن شيئاً لم يتم تحضيره مسبقاً، فقد تظاهرت البطلة من مقعدها بأنها فوجئت عندما تمّت دعوتها، لكنها بسرعة البرق صعدت متألقة على المسرح، وقالت شكراً جزيلاً وسط الاستحسان العام. وبعدها ظهر البطل الرئيس الذي، وبعد

برهة من صمت، ولعدم عثوره على شيء أفضل يقوله، صرّح بإسبانية رديئة (بيبا ميخيكو)[1]، وصفق له كثيراً.

ثم ظهر أصحاب الأدوار الثانوية، تلاهم كمٌّ آخر من الناس لا علاقة لهم بالفيلم، كان من بينهم فرد قصير القامة أراد أن يشد الأنظار مصرّحاً بقدرته على تقليد أصوات فناني الإذاعة وأصوات الحيوانات. وقد قام بذلك فعلاً. وفي النهاية، ظهر منتج الفيلم وزوجته، بعد أن بدا وكأنهما أُهملا على نحو مؤلم.

قدّم عريف الحفل كل واحد منهم بعبارات مديح حماسية، وطلب من الجميع أن يصفقوا لهم.لم يكن يتمتع بمهارة كبيرة، وكان يخفي قلّة خبرته بإطراء هذا وذاك مبالغاً في تحريك يديه بحثاً عن استحسان الجمهور الذي بات شيئاً فشيئاً أقلّ استعدادا لمنحه إياه.

أعلن مختتما:

– كما يوجد بيننا، زوجة المنتج–الفنانة القديرة ...الفنانة القديرة...

لجأ على استعجال إلى ورقة صغيرة – مدام فوشييه التي

(1) عاشت المكسيك.

ستقول لنا بضع كلمات. أرجو منكم أن تصفقوا لها قويّاً.

من مقاعدهم، استجاب ثمانية أشخاص أو عشرة بفتور لهذه الدعوة المُلحّة.

هكذا سنحت الفرصة لمدام فوشييه كي تعرض جمالها الأبيض وثوبها المزركش بالتّرتر ومجوهراتها . اقتربت من الميكرفون مترددة مرتبكة، وأخذت تحرك حبله لعدة ثوان بطريقة نزِقة إلى أن نجحت أخيراً في تثبيته أمام فمها . ابتسمت مجهدة، وكأنها تقول «أخيراً» وابتسم معها الجمهور مبديا تفهّمه.

قالت:

– عزيزي الحضور الكريم، شكراً جزيلاً. أود أوّلاً أن أؤكد لكم أنني لست ممثلة قديرة، كما نعتني للتو صديقي العزيز، السيد... السيد... ثم أشارت إلى عريف الحفل.. بل إنني لست ممثلة أصلاً. بالطبع أودّ لو كنت كذلك فأمنحكم من وقت إلى آخر بعض دقائق من المتعة ولكن، حسناً! أعتقد أن الفن أمر صعب وبصراحة، حسناً! أعتقد أنه أمر صعب للغاية. بل إنني أرتجف لفكرة الوقوف أمام الكاميرا والأضواء مسلطة عليّ وكأنهم على وشك رميي بالرصاص. أفترض أن

ذلك ما يشعر به المرء في تلك الحالة. حتى إنني لا أعلم حقاً لماذا يصِرّ على أنني ممثلة قديرة .ليس ممثلة فحسب بل، تخيلوا، قديرة أيضاً. أود لو أن ذلك كان صحيحاً لأنه، ومهما يكن من أمر، حسناً! فإن خشبة المسرح تجذبني كثيراً. في المدرسة، التي مضى عليها الآن زمن لا بأس به، كنا قد شكّلنا فرقة مسرحية قدمت كثيراً من الحكايات الرّعوية بالغة الجمال كما تعلمون . لكنّني لم أفلح في التغلب على خجلي. ما إن كنت أقف أمام الجمهور، حتى أشعر بأن أفكاري صارت هباء منثوراً ويتصبب عرقي بعد أن ألاحظ عيون الجميع وقد صُوّبت نحوي وكأنني عارية تماماً فلا أعود أعرف إن كنت الرّاعية أم الخروف أم اليسوع الصغير، هكذا،تخيّلوا! وحين أنسى دوري ولِمَ أنا أصلاً على خشبة المسرح لا يعود أمامي سوى اللّجوء إلى اختراع أي شيء كان والكلام ثم الكلام عن أي شيء حتى لا أبقى فاغرة فمي كالبلهاء .حسناً! لذلك أرجو منكم ألاّ تعتقدوا أن هذه التي تحدثكم ممثلة، أعني ممثلة بحق.

سُمعت في القاعة أصوات تصفيق فاترة وسط همسات من قبل البعض.التفت رجل نحيل نحو زوجته هامساً:

«حسناً، من أين جاءتنا هذه الأخرى»؟

– أودّ فقط أن أقول لكم كم أنا سعيدة أن أكون هنا معكم هذا المساء! لكنّ هذا أمر، وأن أُعدّ ممثلة قديرة هو أمر آخر تماماً.

يا له من أمل!أيّ نعمة هذه ! فدون زوجي، السيد فوشييه الذي يرأس الشركة، ما قدر لي أن أكون هنا.عندما ألحّ عليّ أن أجسد دور البطلة بالرداء الفضي في رياح الحرية، الذي سوف نشاهده بعد قليل، تذّكرت تجربتي المدرسية وقلت لنفسي ماذا ستفعلين الآن، ماذا لو فشلت! عبثاً حاول زوجي تشجيعي والتكرار على سمعي «هيا تشجعي، في السينما ليس علينا أن نعرف التمثيل! كنت أرى في ذلك تلميحاً إلى افتقاري للموهبة الفنية .حسناً! إنه لم يكن يثق بقدرتي، وأنا لم أكن أريد المشاركة، لأنني كنت أعرف نفسي . صحيح أنني في واقع الأمر أحب التمثيل وأحياناً، عندما أكون وحدي في البيت، أقف أمام المرآة، ودون أن يراني أحد– وإلاّ سأموت من الخجل – أقوم ببعض مشاهد الرّاعية كي أحافظ على دِربتي. في تلك اللّحظة أنسى كل شيء وأكون سعيدة، ولكن إن دخل أحدهم فجأة وأنا أخطب، أتظاهر

بأنني أسرّح شعري أو أحاول قتل ذبابة. إن ما أحبه أكثر هو التمثيل الكوميدي، لأنه إذا ما اصطدم أحدهم بحائط مثلاً، انفجر الجمهور ضاحكاً من غير أن يرى عيباً في ذلك، أما الدراما فهي أمر آخر.

استطاع الحضور الأكثر وقاراً إسكات الهمس الذي بدأ ينتشر في أرجاء القاعة .ووافق الأقل صبرا من بينهم على الاستماع للحظات أخرى لزوجة السيد فوشييه نصفَ مستمتعين نصفَ مكدرين. وحده الرجل النحيل أصرّ على افتعال ضجة بصحيفة كان يحملها لكن زوجته قالت له ماذا: دهاك يا أومبرتو؟!

– كان يحدث، في فترات معينة، أن أشعر برغبة في الدراسة، ولكن لا، لم أجازف بذلك أبداً.نعم، الرغبة، كنت أملكها، لكنني كنت أقول لنفسي:وماذا ستفعلين إذن؟ وكنت أمضي النهار كلّه وأنا أفكّر:غداً، نعم، غداً سوف أبدأ .هذا ما أودّ توضيحه لكم لأنني لا أحب أن أنسب إلى نفسي قدرات لا أملكها.الجميع يعاملونني معاملة حسنة، ولكن بين هذا وبين أن أضع نفسي في خدمة تاليا Talia، ربّة المسرح، ثمة بون شاسع.

قوبلت الدّعوات إلى الهدوء والتعقل بالرفض من قبل الغالبية، ودوّى التصفيق هذه المرّة بقوة أكبر وممتزجا بالصفير.

أُطلقت صرخة من الرواق الأعلى للمسرح، مقلّدة صوت مدام فوشييه، وانفجر الجميع بالضحك ظانّين أنها صدرت عن الرجل الذي يقلّد أصوات الحيوانات وفناني الإذاعة.

– في المقام الأول، يلزم كثير من الدراسة، لكنني، حسناً! لا أصلح لهذا المجال: فأنا لا أكف عن الشرود. أضيّع حبل أفكاري، وأبدأ التفكير في شيء آخر دون أن أنجح في التركيز، على أن أول متطلبات الفن هو التركيز والمثابرة وعدم التفكير في شيء غيرهما. نعم، كنت أقول لنفسي، إن ما ينقصك هو المثابرة.اعترفي بذلك.اعترفي بأنك لا تمتلكين الموهبة .هذا مؤكد.أنت تحبين المسرح ولكن ليس إلى هذا الحد، إذن، ماذا يجدي العناد؟وماذا لو فشلت؟! إن كان الهدف مرضاة زوجك وأنت ترين كم يحبك، هذا أمر حسن، ولكن إن كان غروراً وغطرسة، فلماذا تصرّين عليه ! هذا ما أقوله لنفسي عندما أفكر بالأمر ليلاً. ومن يدري، لعلّ زوجي يفكر بالطريقة ذاتها، وهو ما يحملني، من أعماقي، على البكاء قليلاً.. صدّقوني.

أخذ عريف الحفل، المقدّر لمسؤوليته،ينظر إلى الحضور ويومئ بحركات تعبر عن رغبته في تفسير ما يحدث..

«ماذا نفعل، ليس الذنب ذنبي، الموقف محرج، أدرك ذلك، لكن ليس في وسعي أن أفعل شيئاً».

– إذا كنت قد دنوْت من هذا الميكرفون،حسناً!، فهذا لأنني أردت أن تعرفوا كم أنا مسرورة لوجودي هذا المساء وسط هذه الكوكبة من الممثلين العريقين، ولكن أن أكون ما قاله عني السيد، كلا.لأنني حقاً، لا أريد أن يكون تصوّركم عني تصوّراً مزيفاً.أعدكم بأنه لو سنحت لي الفرصة، سأبذل بعض الجهد، سأدرس ذات يوم، حسناً! وسأكون جديرة بلقب فنانة، لكنْ عليّ في هذه اللحظة أن أكون صريحة وألا أخدع نفسي وأخدعكم.

في غضون ذلك، حاول عريف الحفل، المهموم بمشكلته، جعل الناس يقدرون موقفه عبر إيماءات ونظرات توضيحية، وكان يرجو أن يلتقط الجمهور رسالته: افهموني، أنتم ما عليكم إلا أن تصفقوا أكثر أو تطلقوا مزيداً من الصفير أو تفعلوا ما يحلو لكم.بالطبع .أنا مشرف الحفل،هذا أكيد، لكنّ ما يحدث هنا شديد الغرابة.هل تدركون أي وضع أنا

فيه؟ مرّة واحدة فقط وقد مضى عليها عدّة سنوات، مررت بالحالة نفسها، حسناً، كان ذلك في الفترة التي كنت أخطو فيها خطواتي الأولى في المهنة، وكنت أتخبط كثيراً.حضر رئيس الجمهورية لزيارة قريتي في اليوم الذي كان فيه أحد أعمامي، وبالصدفة البحتة، يحتفل بعيد ميلاده .وحين رأى عمي الرئيسَ اعتقد أنه جاء لتهنئته فاستولى على الميكرفون وقال للرئيس إنه لا يستحق هذا التكريم، وإنه لم يكن ذا شأن رفيع حتى يأتي الرئيس بنفسه ليزوره. وأنا لم أكن أعرف حينها كيف أخرج من هذه الورطة.حسناً!، ماذا تنتظرون، أنا أيضاً حزين لذلك.إذا كنت نعتّها بالفنانة القديرة، فلأنني أردت أن أكون لطيفاً.

– أود أن أعيد على مسامعكم، أنني مسرورة، نعم، مسرورة جداً، لوجودي هنا هذا المساء، لنفتتح مهرجان السينما الإيطالية. خطر لي الآن فجأة أنه ربما يكون أسهل عليّ أن أعمل في فيلم ينتمي لتيار الواقعية الجديدة، وإن كنت أقول لنفسي أيضاً: «ماذا ستفعلين، وماذا لو فشلت؟! لا أعرف قد يكون هذا هو الطريق الذي عليّ أن أشقه: دور بسيط دون أي تعقيدات، أستطيع من خلاله أن أرتجل قليلاً

دون أن ينتابني القلق، مطلقة العنان لسجّيتي. حسناً! على كلّ حال، لا أدري)).

أضحت إيماءات عريف الحفل يائسة أكثر فأكثر . عقد يديه وحرّك أجفانه بعصبية، إن مراقباً فطناً كان يمكنه أن يستنتج أن عمّه كان في تلك اللحظة قد تورّط في أمر آخر مع رئيس الجمهورية.

في لحظة ما، لم يعد الجمهور يعرف لمن يصغي، لخطاب السيدة فوشيه المليء بالأعذار والمخاوف، أم لعريف الحفل بإيماءاته المشوشة .فاختاروا أن ينفجروا ضاحكين داكّين الأرض بأقدامهم.وقد أفلت الرجل النحيل العنان لغرائزه فحاول النهوض من مقعده، لكن زوجته شدته من كمه وقالت له:((ماذا دهاك يارجل، هل لسعتك بعوضة؟!)).

–لو أنني كنت تتلمذت على يد معلم جيد، لكان بوسعي ربما أن أعتاد الوقوف أمام الجمهور محافظة على تركيزي، لأنكم، كما ترون، لا ينقصني إلا هذا، فالفن، كما تعرفون جيداً، يتطلب التركيز.

أمّا ضيوف الشرف الآخرون، فقد انسحبوا من المنصة

الواحد تلو الآخر بحركة ماهرة. وأما السيد فوشييه فقد توجّه إلى مقصورة العرض وأمر ببدء عرض الفيلم. هكذا، على خلفية متحركة وموسيقية، لم يظهر غير ظليّ عريف الحفل ومدام فوشييه، يتخبّطان ويومئان ويقدّمان آخر ما لديهما من تفسيرات.

البقرة

عندما كنت مستقلاً القطار، وقفت فجأة سعيداً على طول قامتي وبدأت أحرك يدي وأضرب بهما من الفرح داعياً الجميع لمشاهدة المنظر، وتأمل الشفق الذي كان في أبهى صوره. أخذت النساء والأطفال وبعض الرجال الذين قطعوا أحاديثهم ينظرون إلي في دهشة، ويسخرون مني لكنني حين عدت للجلوس مرة ثانية في صمت لم يستطيعوا أن يتخيلوا أنني قد شاهدت من فوري على حافة الطريق بقرة ميتة، ميتة حقاً، أخذتْ بالابتعاد عني شيئاً فشيئاً دون أن يدفنها أحد أو ينشر أعمالها الكاملة أو يرثيها بكلمة مؤثرة تذكّر بطيبتها في الدنيا وجرعات الحليب الدافئ التي ساهمت عن طريقها في جعل الحياة عامة، والقطار خاصة، يواصلان سيرهما.

في ذلك اليوم احتفل البرفسور فومبونا Fombona بعيد ميلاده.لقد أتم خمسة وخمسين عاماً، أمضى أربعين منها في دراسة أجناس الأدب كافة دراسة معمقة، وكانت الأوساط الأدبية الأكثر شهرة تعدّه مرجعية عليا نظراً لأهمية الأعمال التي أنجزها حول العديد من الكتّاب ذوي الاتجاهات المتباينة. ودون أن تتصف بما نسميه عبقرية- وهذا على الأقل ما يؤكده الجميع، حتى أعدائه- فإنّ ترجماته ودراساته الحصرية ومقدماته ومؤتمراته كان يمكن الرجوع إليها، عند الحاجة، كمحافظة نفيسة لكل الكتابات المهمّة في العالم، هذه الحاجة التي قد تظهر مثلاً إثر تدمير المكتبات الموجودة في العالم تدميراً شاملاً.

ولم يكن صيته كمعلم في أوساط الشباب أقل ذيوعاً. كانت المجموعة المختارة من التلامذة المتلهّفين للمعرفة -والتي كان يرأسها ويمضي معها هذه الساعة أو تلك من كل ظهيرة -ترى فيه علّامة إنساني النزعة ونبع معرفة لا ينضب، وكانوا يتبعون تعاليمه بتعصب أعمى كان هو نفسه يخشاه، ولطالما

ألقت هذه المصائر الشابة بثقلها على ضميره.كان آخرها في الترتيب الزمني الشاب فييخو Feijoo الذي ظهر ذات يوم على استحياء، وبأي ذريعة كانت، تجرأ على الانضمام لحلقة التلاميذ في المقهى[1]. وبعد أن قبل فومبونا وجوده مبدئيا،التحق بالمجموعة وكان نموذجاً للعضو المستجد فيها؛ يعتريه شيء من الرهبة لا تخفى على الآخرين ولا يشارك في النقاشات إلا قليلاً .لكنه بعد مرور بضعة أيام، وبعد أن تغلب جزئياً على خجله الأولي قرر أخيراً أن يكشف لهم عن بعض سطور من الشعر،كان يفضل في كل مرة أن يقرأها بنفسه، مشدّداً بنبرة مدرسية مُزعجة على المقاطع التي كان يعتقد أنها ذات تأثير كبير.ثم يطوي أوراقه الصغيرة في هدوء نزق ويرتبها في محفظته و لا يعود يتحدث عنها بعد ذلك أبداً. وكان يقابل آراء الآخرين فيما يقدّمه، إيجابية كانت أم سلبية، بصمت مطبق مضجر.وغني عن القول إن فومبونا لم يكن يستحسن مشاركات فييخو تلك، مع أنه كان متيقناً أن صاحبها يمتلك طاقة شعرية كامنة تناضل من أجل أن ترى النور.

---

(1) مقهى دايسيز، (المؤلف).

ما كان الافتقار إلى الثقة عند فييخو لينجوَ من دقّة حواس فومبونا اليقظة. كان فومبونا يطيل التفكير بها حتى ليوشك في كثير من الأحيان أن يمدحه ببضع كلمات (كان واضحاً أن فييخو في حاجة إليها)، لكن مقاومة غريبة لم يكن ينجح في فهمها أبداً أو أنه كان يحاول بشتى الطرق إخفاءها، كانت تمنعه من لفظها. بل إن ما كان يحدث هو العكس: فإن خطرت له فكرة، جاءت بالأحرى نكتة أو طرفة عن القصيدة تثير ضحكات الجميع بلا شك. كان فومبونا يقول: إن ذلك «يلطّف الجو» ويخفف من وطأة حضوره كمعلم. لكنّ ندماً مُرّاً كان يستحوذ عليه ما إن يتلفّظ بهذه النكات. كان الاقتصاد في المديح فضيلة يحرص عليها كل الحرص. ذلك على الأرجح لأنه هو نفسه، حين كان في عمر فييخو كان يشعر بالخجل لكتابته بعض الأشعار وكانت حُمرة لا مفر منها -يصعب تجنبها أكثر فأكثر كلما حاول مقاومتها- تضرّج وجهه ما إن يقوم أحدهم بمدح كتاباًته المضطربة. وحتى ذلك اليوم، وبعد أربعين عاماً من عمل مثابر أكسبه ثقة لم يذق طعمها من قبل : ترجمات ودراسات حصرية ومقدمات ومؤتمرات، فإنه كان يتجنب كل أشكال المديح

بل إن الثناء عليه من قبل مريديه كان يشكل له بالأحرى تهديداً دائماً، شيئاً يرجوه سرّا لكنّه يصدّ عنه دوماً بطريقة فظّة أو متعالية.

مع الوقت، تحسنت قصائد فييخو تحسّناً واضحاً وبالطبع لم يكن فومبونا وتلامذته يصرحون بذلك، لكنّهم في غياب فييخو كانوا يناقشون إمكانية أن يغدو شاعراً مرموقاً. لقد أصبح تطوره ملحوظاً جداً حتى إنه أثار شغف فومبونا نفسه وذات مساء، قال له فومبونا، على نحو عارض، إن أشعاره، على الرّغم من كل شيء، تنطوي على جمالية لا بأس بها فكانت الحمرة التي علت وجه فييخو هذه المرة أمام هذا التقريظ المباغت وغير المألوف أكثر وضوحاً وأشد إيلاماً من أي وقت مضى. لا بدّ من أنه أحس بثقل المسؤولية التي ستحمِّله إياها تلك الكلمات مستقبلاً. حينما كان فومبونا ملتزماً الصمت لم يكن هنالك ما يخسره فييخو، لكن منذ تلك اللحظة وجب عليه أن يتفوق على نفسه عند كل محاولة جديدة كي يظلّ مستحقاً لعبارة التشجيع السخية تلك.

مذاك، بات من الصعب عليه أكثر فأكثر أن يعرض أعماله. خاصة وأن حماس فومبونا نحوها أخذ يتحوّل منذ تلك

اللحظة إلى عدم اكتراث مبطّن لم يكن لدى فييخو القدرة على فهمه. كان يداهمه شعور بالعجز ليس أمام الآخرين فقط بل أمام نفسه كذلك. كان ذلك الإطراء من قبل فومبونا يساوي عنده الوصول إلى المجد. وبات لا يشعر في نفسه بالقدرة على تقبل أي نقد يمكن أن يوجه له. لقد كان ينتمي إلى تلك الفئة من الناس التي يلحق بها المديح أبلغَ ضرر.

في دايسيز Daysies، لم تكن القهوة طيبة المذاق إلى الحد المرجو، ومؤخراً أخذ التلفاز يعكر صفو المكان .ولكن لنكفّ عن التذمر ونكران النعمة بوصفنا هذا الجوّ المبتذل، ودعونا لا نتوقف–فليست هذه هي اللحظة المناسبة –لمراقبة أولئك المراهقين الذين يشغلون المقاعد بوجوه نابضة بالحياة أو استراق السمع إلى أحاديث موظفي البنك ذوي الهيئات الوقورة، الذين يروق لهم ساعة الغروب، عندما تكتسي ملامحهم بتلك الكآبة العذبة التي تليق بمهنتهم، التحاور حول أرقامهم وحساباتهم وحول النساء الماهرات في اختيار عطورهن واللّاتي يتوقون إليهن.

كان إيتورب Iturbe وريوس Rios ومنتفار Montifar يثرثرون حول تخصصاتهم: مونتفار حول

كانتيليان Quintiliano[1]، ريوس حول لوبي دي فيغا Lope[2] de Vega وإيتيروب حول رودو Rodo[3]، وعلى دفء فنجان قهوة أفترته الثرثرة، كان فومبونا مثل قائد أوركسترا يشير إلى كل واحد منهم بالنوتة الموسيقية المناسبة، فيخرج من وقت إلى آخر من سترته الرمادية (التي نُكّل بها بفعل بقع تراكمت عليها لسبب لا يحتاج التكهن به إلى كبير عناء) بطاقات تحمل معطيات جديدة، ستمكن الأجيال القادمة من معرفة أن هذه الفاصلة أو تلك لم تكن من وضع رودو، وأن هذا البيت الشعري أو ذاك قد عُثر عليه من قبل لوبي دي فيغا في الشارع، وأن هذه الصيغة التعبيرية أو تلك كانت تثير غضب كانتيليان. وعندها تلتمع عيونهم جميعاً ببريق ذلك الفرح الذي تبثّه عادة مثلُ هذه الإسهامات القيّمة المتبحّرة في القلوب المرهفة. على مدى أسابيع وعبر دراسة خطابات كتبت بأقلام متخصصين نابغين، ورسائل موجهة

---

(1) ماركوس فابيوس كانتيليانوس: عالم بلاغة ومربٍ لاتيني (39م–95م).

(2) لوبي دي فيغا (مدريد 1562 — 1635) واحد من أعظم الشعراء والمسرحيين في العصر الذهبي الإسباني، وأغزرهم إنتاجاً.

(3) كاتب وسياسي أروغوياني. (خوسيه إنريكه رودو (الأروغواي 1871–1917).

لأصدقاء بعيدين، بما في ذلك بعض إسهامات مجهولة الأصل أخذت تترسخ عند التلاميذ معرفة متقصية بهؤلاء الرجال العظام النائين في الزمن والجغرافيا. وعزّز العثور على الصيغ المختلفة من النصوص وتصويباتها إيمانهم بقيمة ما يعملون، وبالثقافة ومصير البشرية.

وصل فييخو كعادته في صمت واتخذ موضعاً على هامش الحوار. وبفرض أنه كان يعرف لوبي دي فيغا جيداً (إذ أن معرفة لوبي دي فيغا معرفة جيدة أمر مستحيل في نظر فومبونا) فمن غير المرجح أنه كان يعرف حقاً الفرق الدقيق بين كانتيليان ورودو، وهذا بالطبع ما كان يشعره بالضيق وبشيء من الإذلال.

رأى فومبونا أن اللحظة مواتية .وكالعادة في مثل هذه الحالة استرسل في صمت ثقيل استمر لدقائق عديدة .ثم افترّت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وقال:

– قل لي يا فييخو : هل تتذكر مقولة شكسبير، تلك التي استعادها أونامونو في الفصل الثالث من كتابه عاطفة الحياة التراجيدية؟

كلاّ (لم يكن فييخو يتذكر ذلك).

- فلتبحث عنها إذن، إنها مدهشة، وستفيدك كثيراً.

في اليوم التالي وكما توقع فومبونا، تحدث فييخو عن هذه المقولة وعن ذكراها المشؤومة.

غاب أونامونو عن حلقات النقاش عدة أيامٍ تلت، مفسحاً المجال لكل من كانتيليان ولوبي دي فيغا ورودو الذين عادوا ليحتلوا بقوة مكان الصدارة فيها.

وحين صار أونامونو نسياً منسيّاً:

- فييخو: قال فومبونا وقد ابتسم مجدداً: أنت الذي تعرف جيداً أونامونو، هل تذكر لنا أي كتبه ترجم إلى الفرنسية أولاً؟

لم يكن فييخو يتذكره جيداً.

مضى يوما السبت والأحد التاليان دون أن تنعقد حلقات الدرس. ثم جاء يومُ الاثنين فأدلى فييخو بتلك المعلومات ذاكرا تاريخ النشر واسم الناشر . -

منذ ذلك اليوم المشهود، أصبحت النقاشات تدور في حضور ضيف جديد نشيط وإيجابي: فييخو .صارت الأحاديث تدور فيما بينهم بمرونة أكبر، وذات مساء مكفهّر طبعَ المطرُ فيه حزناً ضبابياً على الوجوه كلّها، لفظ فييخو

للمرة الأولى بوضوح ودقة اسم كانتيليان المقدس. ها قد عثر أخيراً على مكانه في الحلقة . لقد كان حتى ذلك اليوم أشبه بترْس مُهمل مُنفلت من آلة متناغمة، ومنذ ذلك الحين أصبح يجمعهم أمر واحد لم يكونوا يتقاسمونه من قبل: الاندفاع نحو المعرفة. المعرفة الدقيقة.

شعر فومبونا من جديد بمتعة أن يكون معلماً وهو يرى نفسه يترك يوماً بعد يوم بصمات في تلك المهنة التي يملك مفاتيحها وأسرارها : لقد توافقت وبسهولة متناهية حيرةُ فييخو مع حيرة أونامونو! لم يكن اختيار الموضوع من قبيل الصدفة! فأونامونو نهر متعدد الروافد. أونامونو الفيلسوف، أونامونو الروائي، فأونامونو الشاعر. كيركيغارد Kierkegaard[1] وأونامونو، أونامونو وهيدجر وسارتر. إنه كاتب جدير بأن تُكرّس له حياة بأكملها، أما فومبونا، فسيقوم بدوره بتعديل مجرى هذه الحياة لتغدوَ امتدادا لحياته هو . أخذ يتخيل فييخو وسط بحر من الأوراق والملاحظات والمسودات، متحرراً من كل مخاوفه ومن رعب الإبداع. أي ثقة رائعة سيكتسبها آه! سيكون بمقدور هذا الولد العزيز

(1) فيلسوف دنمركي، ورائد الوجودية المؤمنة (1813–1855).

الممتلئ رعباً مناظرة أي كان والتحدث في كل شيء من خلال أونامونو. ثم رأى نفسه قبل أربعين عاماً، يعاني خجِلاً وحيداً بسبب هذا البيت الشعري الذي يأبى الحضورَ، أو يحضر فقط ليلوّن خديه بحُمرَة من نار لم يستطع يوماً أن يجد لها تفسيراً! لكن الشك القديم عاد ليعذبه ثانية.. ها هو يسائل نفسه مرة أخرى إن كانت الترجمات والدراسات الحصرية والمقدمات والمؤتمرات -التي كان يمكنها أن تشكل عند الحاجة، حافظة نفيسة لكل الكتابأت المهمّة التي أنجزت في العالم-كفيلة بأن تعوضه عن هذا الربيع الذي لم يره يوماً بنفسه بل من خلال الآخرين وعن ذلك البيت من الشعر الذي لم يجرؤ يوماً على التلفظ به.كان إحساس بالمسؤولية نحو مصير جديد يثقل كاهله بقوة، وعاد عذاب الضمير القديم الأزلي ليقض مضجعه ثانية:فييخو، فييخو، أيها الشاب العزيز، اهرب، اهرب مني ومن أونامونو: أريد أن أساعدك على الهرب.

بعد مضي بضعة شهور، حضر مارسيل باتايون Marcel Bataillon [1] لزيارة البلاد .فاقترح فومبونا عقد

(1) مارسيل باتايون (فرنسا 1895—1977): كاتب فرنسي متخصص في الأدب الإسباني، خاصة بالروحانيات في إسبانيا القرن السادس عشر.

اجتماع للاحتفال به والحديث عن كتبه.

في الاحتفالية الصغيرة أبدى باتايون اهتماماً كبيراً بالشعراء الجدد وبالبحوث الأدبية وبالفن التشكيلي..بكل شيء. عند حوالي الساعة العاشرة والنصف .أخذ فومبونا فييخو من ذراعه (اعتقدَ أنه لمس مقاومة خفيفة منه، ردعتها على الأرجح سطوة نظرته المبتسمة لا قوّة يده)، ثم تقدم من الضيف المميز وأعلن بترو وهدوء:

– أستاذي، أقدم لك فييخو، وهو متخصص في أونامونو: إنه بصدد إعداد كتاب الطبعة النقدية لأعماله الكاملة.

شد فييخو على يد الضيف وقال كلمتين أو ثلاثاً من المرجح أنها لم تسمع جيّداً، لكنها كانت تعني نعم، تشرفنا، بينما كان فومبونا يحيّي أحداً من بعيد، أو يبحث عن أعواد ثقاب أو شيء من هذا القبيل..

نبذة عن المؤلف:

أوغستو مونتيروسو: من غواتيمالا (1921 - 2003)، أحد أبرز كتاب أمريكا اللاتينية في القرن العشرين، ورائد القصة القصيرة جداً في الأدب المكتوب باللغة الإسبانية وصاحب نموذجها الأشهر : قصة «الديناصور»، إحدى قصص هذا الكتاب . جدّد في أساليب السرد وتقنياته ، وحظيت كتاباته بنجاح نقدي وجماهيري عالميين، وحاز أرفع الجوائز الأدبية، من بينها جائزة خوان رولفو عام 1998 ، وجائزة أستورياس عام 2000. عارض الديكتاتورية في بلده في الخمسينيات، وأقام منفياً في المكسيك حتى وفاته. من أعماله: النعجة السوداء وحكايات أخرى 1969، الحركة الدائمة 1972، والكلمة السحرية 1983 .

نبذة عن المترجمة:

من مواليد دورا الخليل/فلسطين، حصلت على بكالوريوس في اللغات الحديثة (الفرنسية والإسبانية) من جامعة اليرموك عام 2000م. عملت في مجالي الترجمة والتدريس. ونشرت العديد من المقالات والدراسات والنصوص الأدبية المترجمة لأكتافيو باث . وخوليو كورتاثار، وأنطونيو تابوكي، وهيلين سيكسو، وبارغاس يوسا وغيرهم. في دوريات وصحف أردنية وعربية.

الأعمال الكاملة وقصص أخرى

واحد من كلاسيكيات القصة الحديثة في القرن العشرين، ضَمن لمؤلفه مكانة مرموقة بين أهم أدباء أمريكا اللاتينية في القرن العشرين. ولقد مثّل الكتاب علامة فارقة في تاريخ السرد المكتوب بالإسبانية لما حمله من تجديد على مستوى تقنيات السرد وأشكاله، عبر ابتكار القصة القصيرة جداً، وخلط الأجناس الأدبية، وتوظيف التناص والميتاسرد في نصوص فريدة، متعددة القراءات، تجمع بين المعرفة الرفيعة والمتعة القصوى. تتنوع مضامين الكتاب بين قضايا اجتماعية وسياسية، وأخرى تتعلق بأسئلة الكتابة وهمومها، يطرحها المؤلف بروح ارتيابية ساخرة لا ينجو منها هو نفسه.







